

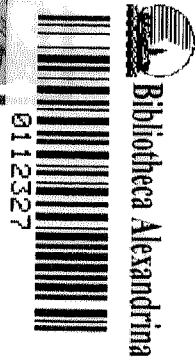
ياسر عبد الثواب

وانهار الدير الأحمر

مشاهدات زائر للاتحاد السوفيتي بعد السقوط



من أدب الرحلات



Bibliotheca Alexandrina

٥٤٤
٥٤٤

وانهار اللب الأحمر

ياسر عبد التواب

لوحة الغلاف : د. يحيى عبد الظاهر

الطبعة العربية الأولى : نوفمبر ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٥١٣٥

الترقيم الدولي : 7-178-291-977



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض و تأكيد الانتماء والوصى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقالى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو الجهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الالكترونى

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

من أدب الرحلات

وانهار اللب الأحمر

مشاهدات زائر للاتحاد السوفيتي بعد السقوط

ياسر عبد الثواب



الإهداء

• إليك أيتها الحاملة ..

• إليك أيتها النائمة ..

• إليك أيتها المغيبة ..

•• إليك أمتي!

ياسر

المقدمة

إنه انهيار بحق ، انهيار دولة وانهيار فكر .

وسواء أسبق انهيار الفكر انهيار الدولة أم كان العكس ؛ المهم في ذلك أنه قد حدث ، وانفرد عقد طالما كان بادي التماسك وسرح أتباعه على موائد اللثام في كل مكان ، في ضياع لم يشهد التاريخ الحديث مثله ، وذهبت إلى هناك ، لا متشفياً ؛ وإنما في محاولة متواضعة للقيام بدور ما تجاه قوم طالما نسيناهم في غمرة أحداث حياتنا ومشاكلها .

ذهبت إلى إخواننا المسلمين هناك أمد يداً ضعيفة ؛ تشدد على أيديهم مشجعة ، وتربت على أكفهم مواسية .

ولم يخل الأمر من رصد حاولت جهدى أن يكون منصفاً .

مقارنة اقتضاها الحال بيننا وبينهم ، بين ذلك الفكر وما بثه في الناس من أنهم تروس في آلة ، مادة فقط ، لا مجال للروح فيها ، وبين فكرنا الإسلامى الشامخ الذى يشبع الروح والمادة معاً .. من أجل ذلك سافرت إلى هناك ..

وقد بدأت تلك الرحلة فى ٧ / ٧ / ١٩٩٤م واستغرقت حوالى شهرين .

المؤلف

أخذت أنظر إلى الساعة وقد قاربت التاسعة ، وأحث زميلي على الإسراع ، فقد كان موعد الإقلاع فى العاشرة من مطار الشارقة ، الذى يبعد نحو ربع ساعة بالسيارة عن مكان وجودنا ، وخلال عشر دقائق كنا على استعداد للانصراف من منزل مضيفنا أحمد زاهر الصديق القديم الذى كنت تعرفت عليه أثناء رحلة للعمرة قمنا بها فى الكلية وزارنا كثيراً فى الفندق الذى كنا نقيم فيه .. إضافة إلى أنه كان صديقاً حميماً لأخى محمود محمد أحد رفيقى تلك الاستضافة والذى تربى على نصائحه ومتابعته إياه فى المسجد على حفظ القرآن الكريم حتى أتمه .. وكان المفروض أن ننصرف قبل ساعة على الأقل حتى نصل إلى المطار فى موعد مناسب ، ولكننا فى الحقيقة أخذنا الكلام عن الذكريات وبعض القضايا الدعوية حتى صلينا الفجر ثم نمنا ثلاث ساعات ونصف واستيقظنا ونجهزنا للانطلاق .. طرقت أحمد زاهر أئتنا خفيفة على الباب ففتحنا له وبعد تحية سريعة انطلقنا عبر الفيلا الأنيقة إلى السيارة المرسيديس البيضاء التى توجهت بنا إلى المطار .. أطلقت العنان للذاكرتى تسترجع ذكريات ما سبق تلك الرحلة ، فقد وصلنا نحن الخمسة المبتعثون فى المهمة التى كلفنا بها من مطار الدوحة إلى الشارقة فى طريقنا إلى كييف عاصمة أوكرانيا ولأنه ليس هناك طائرة مباشرة من مطار الدوحة إلى كييف فقد حجزنا (ترانزيت) إلى الشارقة قبل موعد إقلاعنا بيوم لعدم وجود طائرة أخرى فى نفس يوم السفر، والذى حدث أننا سمعنا عن قانون جديد فى دول مجلس التعاون يتيح للمقيمين فى تلك الدول التنقل بينها دون تأشيرات .. ولكننا فوجئنا بعد وصولنا بأنه أدخل عليه تعديلات وعند مكتب الجوازات مددت يدي هامساً :

- تفضل الجوازات .. قلتها وقد جمعت ما في أيدي زملائي من جوازات .

- ماذا تريد ؟ قالها ضابط الجوازات .

- نريد الدخول .

- أين التأشيرة .

- أو ليس هناك قانون يسمح لنا بالدخول؛ فنحن نقيم في دولة خليجية .

- آسف فقد أدخلت تعديلات كثيرة ، والقانون الآن يخص رجال

الأعمال والمهندسين والأطباء فقط .

كنا نظن على حسب علمنا السابق أن كل من يحمل شهادة جامعية يحق له الدخول دون تأشيرة فلذلك لم نحصل على تأشيرة دخول إلى الشارقة ، ومن ثم فوجئنا بالسلطات تمنعنا من الدخول ، ومع الأسف إنه لا يوجد أى فندق أو مكان مناسب يصلح لتمضية اليوم والليلة المتبقين حتى موعد الإقلاع ، وسقط في أيدينا أين سنقضى تلك الليلة حتى موعد الإقلاع ، اتصلت بأحمد زاهر وتركت له رسالة على جهاز التليفون حيث لم أجده ثم عدت وحاولنا نحن الثلاثة المصريين محمود محمد ومخير عبد الله وأنا أن نقنع الأخوين محمد الطيب من البحرين ، ومحمد القحطاني من قطر أن يدخلوا إلى الشارقة حيث إنهما من دول مجلس التعاون ويحق لهما الدخول دون تأشيرة ، وليس هناك داع أن يشاركونا في هذا الانتظار دون فائدة ولكنهما أصرا على الانتظار معنا .

قال محمد الطيب : إننا مجموعة واحدة ولا يحق لنا أن نتحركم تنتظرون ونحن نتمتع بالدخول إلى الشارقة .

قال محمود : اسمع كلامي يابن الحلال الوضع هنا صعب فاخرجنا أحسن .

- الطيب : مش ممكن - الدم .. الدم . الهدم .. الهدم .
- القحطاني : دعنا نذهب إلى المسئول لتكلمه عسى أن يكون هناك حلاً .
وبالفعل توجه محمد الطيب إلى الضابط المسئول .. استقبله استقبالا
طيباً وأجلسه ؛ وعرض عليه أن يشرب زجاجة مياه غازية فاعتذر وقال له :

- اعدرنى .. لا أستطيع .

- الضابط : لم لا تستطيع .. إنها مياه غازية !

- محمد : إخوانى يقفون هناك ولا يستطيعون الدخول .

- الضابط : وما السبب ؟

وحكى له ما حدث ..

- حك الضابط رأسه فى حيرة ثم قال : المشكلة أنه قد أجريت تعديلات
وسكت .. وأضاف فى تردد بإمكان الشركة الناقلة أن تضمنكم لدى
السلطات ، وهذا حل جيد ، ولم يستطع محمد أن يضيف جديداً .

وتكلمنا مع الشركة وكل مسئول يرفعنا إلى من هو أعلى منه حتى
وصلنا إلى المدير فرفض قائلاً إنه يخشى المسئولية حيث إن البعض قد
يستغل هذا الضمان ويدخل إلى البلاد ليعمل وتتحمل نحن المسئولية فى
حالة عدم عودته !

قلت : سبحان الله .. ماذا يضير لو دخل من يرغب فيبحث عن عمل
وإن لم يجد فسوف ينصرف وهذا ما كان يحدث آنفاً . عند ذلك الحد كنا
قد استفرغنا كافة الحلول الممكنة .. وبدأنا نؤقلم أنفسنا على المبيت فى
المطار .. تأملت فى المكان فإذا هو ممر طويل إلى اليمين منه أبواب لبوابات
الإقلاع أو الهبوط ، وإلى اليسار منه طريقان أولهما يؤدي إلى الكافتيريا
وفى الطريق إليها فوتيهات اسفنجية والطريق الثانى يؤدي إلى صالة
الجوازات والتى إذا تخطيناها أصبحنا داخل البلد .. وفى الطريق إليها توجد

دورة مياه ثم مسجد صغير جداً حُوِّطَ بخشب ارتفاعه حوالى نصف متر
وحدد به مكان القبلة ليصلى فيه من أراد .. ويوجد فى منتصف الممر
الرئيسى الطويل تقريباً سوق حرة تباع منتجات مختلفة غذائية وملابس
وخمر ! والبائعات كلهن فليينيات يرتدين زياً واحداً لونه أخضر زيتى
وفوق الركبة بحوالى شبر .. وكلهن (على الفرازة) كما يقولون ، واللغة
السائدة فى الكافتيريا والسوق الحرة هى الإنجليزية والعملة الدولار
والأسعار نار ، وكأننا لسنا فى بلد عربى ! قال محمود : وهذا الحال مع
الأسف فى أغلب بلاد المسلمين .. كما توجد كافتيريا صغيرة مقابل السوق
الحرة تقدم المرطبات والسندوتشات واليسيرة .. وينتشر الروس فى المكان
عموماً فتجدهم يجلسون فى كل مكان وينامون على أى جنب : فهؤلاء
شباب يجلسون على الأرض .. وهذا فتى وفتاة جلسا إلى جنب ياكلان من
علبة محفوظة فى الخفاء قذرا الأرض قليلاً .. توفير !
رجل سمين يحمل كرتونة كبيرة تنوء بها يده .

امراة ودعت الشباب تجلس بجوار شاب عربى يتكلم وهو ينظر إليها .
اثنان من الخليج يجلسان بكامل هيئتهما يتأملان فىمن حولهما ؛ رجالاً
ونساءً .

خليط غريب من البشر .. ويبدو أن السبب الرئيسى لوجودهم هو
التسوق فى دى حيث أسواق الجملة المشهورة فى الخليج والمناطق المحيطة ..
التبرج والسفور وتكشُّف النساء فى كل مكان من حولنا .. وبدأت علاقتنا
بروسيا منذ ذلك الوقت .. حيث الروسيات بعريهن وتكشُّهن وما يقال
عنهن من استعدادهن للقيام بمهام ثقافية !

توضأنا وصلينا وجلسنا فى المسجد نتشاور قليلاً حيث اتفقنا على أن
يخرج كل من الطيب والقحطانى ليبحثا لنا عن طعام .. ثم خطر لنا أن

نسأل في الكافتيريا الكبيرة عن الطعام فوجدنا فيها دجاجاً وسمكاً من المنتجات المحلية ففرحنا لذلك ؛ فقد كنا نخشى ألا تكون اللحوم مذبوحة على الشريعة ثم طلب كل منا ما يرغب ..

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً في أثناء تناولنا للطعام .. إذ فوجئنا أثناء ذلك بأحمد زاهر قادم إلينا من بعيد ؛ حيث تلقى التسجيل التليفونى وسعدنا جداً فلم نكن التقينا به منذ أكثر من ست سنوات .. قمنا إليه وعانقناه .. وبادلنا الجميع التحيات الحارة بعد أن تعرف على من لا يعرفه منا .. وكان معه أخ آخر عرفنا عليه اسمه عوض .. وبعد جلسة قصيرة حاول أحمد أن يتصل بتليفونه اليدوى بعدة أشخاص فى محاولة منه لإدخالنا للشارقة ولكنه لم يجد أكثر معارفه فاتفق معنا على أن يخرج ليقضى مشواراً خاصاً ، وسوف يعاود الاتصال بمعارفه من الخارج ومن ثم يخرجنا نحن الثلاثة . ثم شجعنا نحن الأخوين الآخرين على الذهاب مع الأخ عوض ما دام الأمر قد ينتهى بخروجنا فلا مانع من أن يذهب من الآن ليستريحاً بالإضافة إلى أن الأخ منير والأخ محمد الطيب يحتاجان إلى شراء بنطلونات وقمصان من الأسواق لاستخدامها أثناء السفر ؛ حيث نُصحنا ألا ترتدى الثوب العربى أثناء تواجدنا هناك لئلا يطمع فينا أحد وحيث غلاء الأسعار فى السوق الحرة أو سمها السوق الملتهبة .

بقينا نحن الثلاثة من قرابة الخامسة .. واستقر بنا الجلوس فى الصالة الأولى المطلة على الكافتيريا حيث العدد أقل وجلسنا على الكراسى الاسفنجية العريضة فهى أكثر إراحة من غيرها ، ومرت الساعات وصلينا المغرب والعشاء ثم جلسنا نقرأ قليلاً واقتربت الساعة من الثانية عشرة مساءً ويئسنا من الخروج وبدأنا نفكر كيف سننام .. حاولنا أن نزيح الكراسى بحيث تستقيم من الشكل النصف دائرى الموضوعه عليه .. فلم نفلح حيث

إنها مصممة لتبقى كذلك .. فقلنا لا مفر من النوم جلوساً وبينما نحن كذلك .. إذ جاءنا صوت أحمد زاهر من بعيد .. ثم ظهر .. وقد بدا عليه الإرهاق فقد بذل في خلال هذه الساعات جهوداً مضنية حتى استطاع استصدار أوامر تسمح لنا بالدخول إذ كان موعد الدوام الرسمي قد انتهى منذ فترة طويلة ولم يبق له إلا الاتصال بالمستولين في بيوتهم أو أماكن تواجدهم .. قلت في نفسي سبحان الله أكل هذه الجهود وذاك التعب من أجل أن ندخل إلى بلد من بلاد المسلمين ؟ لماذا يصنعون الحدود والعراقيل في تنقلات الناس .. في حين أن الكفار والأوروبيين ألغوا الحدود بينهم .. فلا مانع هناك من الانتقال إلى أى بلد يريد .. ثم أين ذلك من الإخوة الإسلامية التى علمنا إياها الإسلام.. ومن أن الأرض لله .. سبحانه وتعالى.. وحمدنا الله وتنفسنا الصعداء إذ خرجنا من ذلك المكان الذى أزعجنا كثيراً مجرد التفكير فى النوم فيه إذ إنه أعد للرحيل وليس للاستقرار.

المهم أخذ أصحابنا هناك منا الجوازات ضمناً لعودتنا فأعطيناهم إياها على أن نأخذها فى اليوم التالى .. ولزيد من حرية الحركة والتخفيف تركنا الحقايب الكبيرة فى حوزة شركة الطيران ، وعند خروجنا كان معى حقيبة بها بعض الكتب فأمرنى موظف الجمارك أن أفتحها ففتحتها .. فأخذ يتأمل فى الكتب - وكان من بينها كتاب ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة - فتأملها .. ثم قال : الحقيقة أن الكتب ممنوع دخولها إلا بإذن فقلنا ولكنها كتب دينية فقال ضاحكاً : وهذه هى المشكلة مع الأسف . فدخلنا مرة ثانية وتركنا هذه الحقيبة ثم خرجنا إلى الطريق وقد قاربت الساعة الواحدة ليلاً .. ركبنا سيارة أحمد زاهر .. فأخذ يسرع بها .

علقت على استحياء : ما هذه السرعة يا أحمد.. نريد أن نعود إلى ذويتنا ! ابتسم وهو يقول : لقد انفتحت مع أحد المطاعم على إعداد عشاء لنا

والمطعم أصلاً يغلط في الثانية عشرة ولكنى اتصلت به من الخارج فأنا زبون عنده وهم الآن في انتظارنا .

قال محمود : والله لقد تعشينا شكراً لك .

رد عليه : مش ممكن لازم تاكلوا تانى .

قلت : صدقنى لقد شعبنا .

ابتسم قائلاً : سيعجبكم الأكل وانت بالذات ممكن تاكل تانى .. انت

تفصل منى اتنين .

ضحكت وأنا أقول لا فائدة من مجادلتيك .

وبالفعل ذهبنا معه إلى المطعم .. وكانت أكلة بحرية جميلة جمبرى كبير وأرز وسلطة واستاكوزا مشوية .. وبعد أن امتلأت البطون ذهبنا إلى المنزل وجلسنا نتحدث حتى الفجر وبالرغم من أننا لم نر الشارقة إلا مساءً فإنه لم يفتننا جمال البلدة وحسن نظامها فهي تتميز بهدوئها إذا قورنت بدبى فهي ليست مشهورة بالتجارة كحالها لذا فشوارعها الفسيحة لا تزدهم بمحلات كثيرة كما أنها لها بعض الكبارى العلوية التى تخفف من الزحام - إن وجد - وتصلها بدبى فى دقائق معدودة فالحدود بين الإمارات مفتوحة بيد أن لكل إمارة شرطة خاصة وميزانيات المرافق وأرقام السيارات بها ولها كذلك بعض القوانين التى قد تختلف عن غيرها من الإمارات .

وبالإمارات عموماً نظام مرورى مميز - شبيه بالدوحة - وهو وجود دوارات وهى بناء دائرى عند التقاطع يزين أحياناً ببعض النوافير أو الأشكال الجمالية عند مفترق الطرق لتنظيم المرور عند تقاطعات الطرق بحيث تكون أولوية الاجتياز لمن سبق له دخول ذلك الدوار □

فى مطار الشارقة

وصلنا إلى مطار الشارقة ونزلنا من السيارة بسرعة .. الوقت أمامنا ضيق على موعد الإقلاع وما زال أمامنا وقت قصير لوزن الحقائق واسترداد الجوازات .. وفى خلال عشر دقائق كان مع أحمد زاهر الجوازات التى احتجزوها آنفاً ثم ذهبنا لوزن الحقائق .. أخذت أنلفت باحثاً عن محمد الطيب ومحمد القحطانى .. لعلهما وصلاً وسبقانا إلى الداخل .. وقفنا أمام إشارة شركة الطيران الأوكرانية .. الموظفون غير موجودين .. ترى هل أتموا عملية الوزن ثم دخلوا .. أخذ أحمد زاهر يسأل فقالوا له إنهم لم يأتوا إلى الآن فتعجبنا إذ إنه لم يبق على موعد الإقلاع إلا حوالى نصف ساعة .. انتظرنا خمس دقائق بعدها أتى الموظفون .. ثلاثة من الهنود .. أتمنا عملية الوزن .. وفى أثنائها تقريباً وصل محمد الطيب والقحطانى فأنهينا الوزن معاً ثم أسرعنا بالصعود لأعلى حيث إن مطار الشارقة به طابقان فى السفلى استلام وتسلم الحقائق وفى العلوى الجوازات ومنها إلى صالة الترانزيت التى وصفتها آنفاً .

عند مدخل الترانزيت ودعنا أحمد زاهر وشكرناه على مجهوداته واستضافته لنا وأسرعنا ، باقى على الإقلاع أقل من عشر دقائق .. أخذنا نتسمع ونبحث بسرعة عن بوابة الصعود .. إنها البوابة رقم (٦) ذهبنا إليها مسرعين .. لا يوجد موظفون أتراهم قد أقلعوا قبلنا .. سألنا شرطية .. فقالت الطائرة قد تتأخر قليلاً .. لم يطمئن قلبى .. إن المكتوب على التذكرة أن الإقلاع قد حان وقته .. ولكن أين الركاب أو حتى موظفو الطائرة .. لا يوجد أحد .. بحثنا فقد تكون البوابة قد تغيرت ولكننا لم نجد على أى بوابة

أخرى لافتة باسم أو رقم الطائرة إلا رقم (٦) .

قلت : ماذا حدث ؟ أين الركاب ؟

قال محمود : لا أدري .. ألم يصعدوا معنا .. فأين ذهبوا ؟

قال الطيب : يبدو أن الإقلاع بتوقيت الدوحة .

لم أقتنع وقلت : وهل هذا معقول ؟ صحيح أن توقيت الدوحة أقل بساعة ولكننا نقلع من الشارقة .

يبدو أن توقيت الطائرة على حسب توقيت الدوحة .. هكذا قلنا لأنفسنا .. فإن توقيت الدوحة أقل بساعة إذن فقد بقي لنا حوالي ساعة ولأقطع الملل بحثت عن تليفون دولي .. ثم اتصلت بالوالدين في مصر ثم بالأهل في قطر .. وأخذنا نتسمع كلما تكلمت فتاة الإذاعة في المطار معلنة هبوط أو صعود طائرة .. وتصلنا الأصوات خافتة وغير واضحة .. إن أكثر من يجلسون خلف ميكروفونات المطارات يتكلمون بطريقة متكلفة غير واضحة ويبدو أنهم يقلدون بعضهم في ذلك .. لكن يبدو أن هذه المذبة ازداد عندها هذا التكلف فيبدو صوتها وكأنها استيقظت لتوها من النوم ثم تختم الكلمة بنبرة تساؤل مثيرة للالتباس .. المهم أننا لم نفهم شيئاً .. وإن كان الوضع لم يتغير فالمكان خال .. ومرت ساعة .. ساعتان .. وما زال الأمر كما هو واقتربت الساعة من الثالثة عصراً ! عرفنا عندها من الموظفين أن الطائرة ستقلع حوالي الرابعة والنصف بتوقيت الشارقة !! والوقت في العالم الثالث ومنه الروس الآن بلا قيمة ، حيث يقاس بالكيلو لا بالثانية ؛ إذ جلسنا الساعات الطوال لا يسأل عنا أحد ولا يدلنا على بغيتنا دال .. وقريباً من البوابة جلسنا .. وبدأ المسافرون يتوافدون أكثرهم من النساء متوسطات السن والقريبات من العقد الرابع وبدأت حملة من التوافد . الجميع يحملون كراتين وشنطاً متوسطة الحجم وثقيلة على ما يبدو من

طريقة حملها ، وفجأة فى حوالى الرابعة تنادى الناس بأن الدخول قد بدأ ..
وإذا بأموح المسافرين تتدافع بسرعة للدخول إلى صالة الإقلاع ، وسرنا
على مهل ثم دخلنا إلى الصالة وجلسنا معهم ، هناك تعرفنا على شاب
إيرانى مقيم فى دىبي وعرفنا على نفسه على أنه تاجر مسافر إلى أوكرانيا
ليشترى حديداً .. وسألنا إن كان قد سافر إلى هناك من قبل .. فأجاب أنه
سافر أكثر من مرة.. فرجوناه أن يساعدنا فى حالة الوصول إن لم نجد من
يستقبلنا تحت أى ظرف ..

جلست متأففاً من طول الانتظار وكان هذا التاجر بجوارى ملت عليه
وسألت : لماذا تأخرت الطائرة إلى هذا الحد ؟
قال هذا شىء طبيعى ..

رفعت حاجبى مندهشاً : أوليس هنا للوقت قيمة ؟
قال : يا عزيزى حاول أن تنسى ما سمعته عن تلك البلاد فهم بدائيون
إلى حد كبير .

قلت وقد استحضرت ما كان يقال عن ثانى أكبر قوة فى العالم : وكيف
تقول ذلك ؟

قال : إن كل شىء فى هذه البلاد على نفس حالته تقريباً من أكثر من
ثلاثين سنة نفس القطارات .. الطائرات .. المباني .. المواصلات .. الأجهزة
لا يقام إلا بصيانتها فقط .
وماذا أيضاً ؟ قلتها بتعجب ..

فقال : وثانياً لأن الركاب جميعاً من تجار الشنطة .. يأتون إلى دىبي أو
إلى أى بلد آخر يتسوقون ويعودون محمليين بالبضائع إلى بلادهم ؛ ولذا
فهم يتأخرون دائماً فى عملية الوزن ..

أثار كلامه عن التجارة فضولى لا سيما والشيوعية كانت تمنعها فسألته

عنها ثم أصغيت لإجابته باهتمام ..

وضع يده على الكرسي الذى أجلس عليه ثم قال : إن اعتمادهم الأساسى على أسلوب تجارة الشنطة مجرد شراء بعض الأشياء المتناثرة لبيعونها فلذا نجد عند كل محل مثلاً جهاز تلفزيون واحد إذا بيع يشتري غيره .

قلت : إذن فانت لا تستطيع تسويق تجارتك هناك فتبيع لهم ؟
ضحك قائلاً : نعم .. فهم يخافون ألا تباع البضائع فيحذرون أن يأخذوا منها كميات .

سالته إذن فماذا تفعل فى تلك البلاد ؟ رد وكأنه يلقي سراً : أنا أشتري من هناك الحديد فقط وأسوقه بمعرفتى .

قلت : هل تجد صعوبة فى ذلك ؟

قال : الأصل أن إخراج مثل هذه المواد الخام ممنوع ولكنك ستري أن كل شىء فى هذه البلاد يمشى بالرشوة .

قلت : معقول ؟

قال : نعم ، بإمكانك أن ترشى أى مسئول وأن تفعل أى شىء وأن تتاجر فى كل شىء ما دمت تدفع فأنا مثلاً أشتري الحديد من هناك فأستخرجه من المصنع بالرشوة ثم أستخرج له شهادة منشأ بالرشوة أيضاً ، ثم أشحنه من ميناء الشحن بالرشوة وأكرر ذلك دائماً .. وكل شىء بالرشوة من أسرار الدول إلى البلوتونيوم وهناك عصابات دولية تمارس أعمالاً رهيبة ..

سرحت بخيالى .. إن مجتمعاً يقوم على الرشوة لن يكون مجتمعاً هادئاً أو مستقراً لأن مثل هذه الأفعال - وبغض النظر عن كونهم كفاراً وأن هذا شيئاً مجرمًا - تؤدي إلى خلل فى المجتمعات وظلم للشرفاء الذين لا يقبلون الرشوة .

سألته لكن من أين يحضر التجار هذه الأموال التي يشترون بها كل هذه البضائع مع أن المعروف أن هذه البلاد فقيرة وخارجة لتوها من الشيوعية ؟ قال : إن كثيراً منهم يقترضون أو يتساهمون مع غيرهم ويسافر أحدهم للتسوق وكذلك فإن أسلوبهم فى الربح غريب جداً فهم إذا اشتروا شيئاً بدولار مثلاً فإنهم يريدون بيعه بخمس أو ست دولارات .. وهذا نوع من عدم الفهم للتجارة إضافة إلى أنه يرفع الأسعار بشكل كبير .

ساد الصمت لحظات فاستأذنت وذهبت إلى دورة المياه فإذا بأحد الروس يسبقنى ليفتح باب الحمام ويغلقه أمام وجهى بجفاء .. عدت مرة أخرى وإذا بالساعة تقترب من الرابعة والنصف جلست على أحد الكراسى حيث جلس محمد الطيب مكاني السابق ليتجاذب أطراف الحديث مع التاجر الإيراني .. نادى موظفو الطائرة على الركاب للخروج من هذه الصالة ليركبوا الحافلة التى تقلهم إلى الطائرة وتمعجت من هذا الصنيع وغيره فالمعتاد أن ينادى على الدخول للقاعة أو على الاستعداد للإقلاع فى الميكرفون .. ولكن يبدو أن سلطات المطار تعامل هذه الطائرة وأمثالها معاملة خاصة .. أسرع الركاب كمعادتهم بالخروج من تلك الصالة .. وتزاحموا كذلك على النزول إلى مكان الحافلة حتى إذا وصلنا نحن لم نبق إلا ومجموعة أخرى من الركاب فانتظرنا حافلة ثانية .. وطال بنا الانتظار حوالى ربع ساعة حتى جاءنا أتوبيس صغير ركبناه جميعاً .. وانطلق بنا يمشى لمسافة طويلة حتى وصلنا إلى الطائرة "إير أكرينا" □

الضرب

أخذت أتأمل في الطائرة من الخارج أثناء صعودى على سلمها طائرة بيضاء اللون متوسطة الحجم لها جناحان قصيران ومندمجان مع جسم الطائرة على الشكل الذى يطلقون عليه فى الرياضيات "القطع الناقص" .. صعدنا لتتعطل قليلاً عند مدخل الطائرة بسبب التكدس الحادث من تجمع الركاب وركاب حافلتنا الصغيرة حيث اعتدنا من ركاب تلك الطائرة على التزامم وسرعة التحرك ولا أدرى ما السبب إذن خطوات قليلة إلى داخل الطائرة وعرفت بعدها سبب هذا التزامم وتلك العجلة للدخول إلى الطائرة فقد استقبلنا طاقم الطائرة على بابها بشيء من اللامبالاة وسلمناهم بطاقات الصعود ثم دخلنا .. ونظرنا إلى أرقام الجلوس فلم نجد أرقاماً على التذاكر تشير إلى أماكن جلوسنا .. وهذا شيء يحدث فى شركات الطيران غير الجيدة لا حرج إذن أن نبحث عن أى مكان خال لنجلس فيه الطريق مزدحم .. لا أدرى لماذا لا يجلس الركاب على كراسيهم ؟ بعد محاولات استطعنا التحرك عبر الطريقة الوحيدة الفاصلة بين الكراسى الستة الموزعة على جانبي الطائرة .. الكراسى كلها مشغولة إما بالركاب .. وإما بأمعتهم .. وهكذا ظللنا نسير إلى قرابة نهاية الطائرة والركاب بين وقوف وجلوس وأكثرهم يضع كراتين التلفاز والفيديو والأطقم الصينى والشاى على الكراسى المخصصة للركاب .. وبدأ لى وكأننا لسنا فى طائرة وإنما فى حافلة من الدرجة الثالثة من تلك التى تستخدم لنقل الركاب فى قرى بلادنا، خروف بجانبك وزلعة مش فوق رأسك ! وطفل يظنك أباه يمسك بيدك وقد أزعجه الذباب وقوفاً على أنفه

قريب من نهاية الطائرة نحو عشرة صفوف من الكراسى لا تمتلئ إلا بالبضائع وقد عمد أصحابها إلى تحريك ظهور الكراسى بحيث يتمكنوا من وضع البضائع عليها .. وكذلك لمنع من تسول له نفسه بالجلوس .. لمحت التاجر الإيراني يجلس قريباً منى فابتسم لى وهو يهز كتفيه وكأنه يقول لى هل صدقتنى الآن .. فسألته أليس لنا مكان .. قال بإمكانك أن تكلم المضيفه وضحك .

بالبطائرة مضيفتان قاربتا الخمسين من العمر إلا قليلاً ومضيف شاب فى الثلاثين تقريباً يبدو على ملبسهم أن حالتهم المادية غير متيسرة وكنت قديماً قد تعلمت من كتاب "الكشفية للفتيان" لـ (بادن باول) مؤسس الحركة الكشفية أن أكثر ما يميز المستوى المادى للناس هو الأحذية وإلى حد كبير وجدت أن هذه القاعدة صادقة ، نظرت إلى أحذية الطاقم فوجدت المرأتين ترتديان حذاءين قديمين لم تلمعانه منذ فترة فانعكس ذلك على اللون الأسود لهما وكذلك على الأطراف المديبة حيث تحولت إلى اللون الأبيض تقريباً . أما المضيف فأظنه كان يرتدى حذاءً نياً لا يتناسب مع البنطلون الكحلى والقميص الأبيض الذى يتميز بهما الطاقم .. حاولنا أن نتكلم معهم بالإنجليزية ففوجئنا بهم لا يعرفونها .. فأشرنا إليهم بالتذكر .. نريد الجلوس .. وأظنهم قد فهموا ما نريد فأشاروا لنا بالانتظار .. وبدأوا يستسمحون الركاب أن يأخذ هذا حقيته وأن يحرك ذاك بضاعته .. أعجب طاقم طائرة رأيتة فى حياتى .. إنهم يتعاملون مع الركاب وكأنه ليس لهم عليهم أى سلطان أو كأنهم ليسوا موظفين فى ذلك المكان .. بصعوبة أمكنهم تهيئة أماكن خمسة .. اثنان متجاوران فى الصالة الأولى التى يفترض أنها مقاعد الدرجة الأولى ! .. وثلاثة أخرى فى الصف الأول من الدرجة الثانية والمجاور للطريقة التى تفصل بين الدرجتين .. استقر بنا

الجلوس على الكراسى فجلست أنا والقحطاني على الكراسى الأخيرة وجلس محمود والطيب على الكراسى الأولى ، سرعان ما اكتشفت السبب فى شعور بالضيق كان يراودنى منذ الدخول حيث كان انشغالنا بالبحث عن المكان صأرفاً لتفكيرنا عن حقيقة الوضع بالطائرة إذ سرعان ما شعرنا أنه ليس بالطائرة أى مكيف .. ليس فيها إلا مراوح تضح هواءً خالياً من البرودة من فوق رأس كل راكب .. وبدأ العرق يتصبب .. الوقت يمر دون إقلاع ونحن نتكلم معاً .. لماذا لا تصعد الطائرة .. بدأنا نتململ بحث عن شىء أستخذه كمروحة أخفف عن نفسى الشعور بالحر فى مكان مغلق ملئ بالناس فى يوم حار من أيام شهر يوليو بالشارقة .. فوجدت جريدة عربية استخدمتها فى التهوية على وعلى محمد ومير حيث أجلس فى الوسط .. وفجأة .. توقفت محركات الطائرة عن الحركة وانطأأت الأنوار .. الحر يحيط بنا من كل مكان .. انقلبت الطائرة إلى فرن مغلق .. وجميع الركاب ونحن طبعاً فى حالة يرثى لها .. وفى خلال حوالى خمس دقائق من بداية هذا الحر أصبح أغلب الركاب وقوفاً .. الوجوه قد احمرت وخلع أغلب الرجال الروس قمصانهم العلوية وأصبحت رائحة العرق تملو من كل مكان ، نظرت إلى منير فإذا بالعرق يلجمه من رأسه إلى قدميه فقد كان سمين الجسم مثلى ولكنه غزير العرق عنى فملاسه تقريباً قد ابتلت من العرق .. ووقفنا أنا وهو وجلس محمد .. وقد تجمع بعض الركاب حول المضيفتين فى الطريقة .. ولفت نظرى فتاة عمرها حوالى ١٠ سنوات وأمها تقف أمامها وقد احمر وجهاهما من العرق والحر .. والفتاة يكاد نفسها يضيق . وأمها تهوى عليها بمنديل فى يدها .. تذكرت فى ذلك الموقف موقف القيامة والناس قد انشغل كل منهم بحاله .. كما سينشغلون كذلك يوم القيامة حيث لا يستطيع أحد يوم القيامة أن يخفف عن أحد أو يشاركه

ضيقه .. ومرت دقائق أخرى كأنها الدهر .. وضاعت الأنفاس .. وقلت
لنفسى ما هذه الرحلة الشاقة وتمنيت لحظتها أن أعود من حيث أتيت .. كما
يتمنى الكافر أن يصرف من موقف القيامة ولو إلى النار .. وجاء اليسر بعد
العسر .. فبعد ذلك بلحظات عادت للطائرة روحها وعادت تزمجر من
جديد .. وعاد النور وهواء المروحة مرة أخرى وبدا توقف تدهور الحال ..
وإن لم يكن بالطبع قد انتهى الحر .. هذا أفضل على أى حال .. لم يطل
انتظارنا فقد بدأ القبطان تعليماته .. بالروسية فقط ولكننا فهمنا أنهم
سينطلقون .. وبالفعل بدأت الطائرة فى الحركة ..

كنت أظن - حسب ما كان مكتوباً فى التذكرة - أن موعد الهبوط
سيكون بعد ساعتين ونصف .. وبصعوبة تفاهمت مع المضيف بالإنجليزية
الضعيفة لديه على أن موعد الوصول بعد أربع ساعات ونصف .. فلم إذن
يكتبون ذلك ! سؤال سألته لنفسى ولم أجد منها إلا التعجب فهذا حال
العالم الثالث كله تمام ! .. وقد بدأت التعود على هذه الأمور .

بعد حوالى نصف ساعة من الإقلاع بدأت الأمور تستقر فطبقات الجو
العليا أبرد من السفلى .. فضلاً عن اقترابنا من وقت المغرب حيث الجو أبرد
كذلك .. لاحظت أن إحدى المضيفات تغلق الستارة التى أمامى والننى
تفصل بين الطرقتين وخمنت أنها تريد أن تغير ملابسها المستلة بالعرق إلى
حد التصاقها بجسدها .. وقد كان بالفعل !

بعد حوالى ساعة انتقل مسير إلى الكرسى المقابل لكرسيه على الطرف
الثانى من الطرقة ، وبقيت أنا والقحطانى مكاننا ، وبدأوا فى توزيع وجبة
الطعام وسألنا عن مكان إعدادها فعرفنا أنها تعد فى الشارقة فأكلنا منها
وبعد انتهائنا وأثناء جمع بقاياها جاءت المضيفة أمامى وأخذت تشير إلى
بقايا طعامى وتحدث معى بالروسية بلهجة امرأة لم تعجبني .. وإن كنت

فهمت منها أنها تريدني أن أدخل الأطباق الصغيرة داخل الكرتونة التي قدموا لنا فيها الطعام .. ولا أدري كيف يعاملون الركاب هذه المعاملة السيئة .. ففي أغلب الطائرات يتم جمع بقايا الطعام بكل هدوء .. فعلتُ ما تريد الجفء .. وانشغلت بالكلام مع محمد القحطاني .. وكان ينظر من الشباك على السحاب فأخذنا نتأمله سوياً ونعلق عليه .. فقد كان يشبه الجبال البيضاء حتى لقد شككنا أحياناً أن بعض الجبال من الطول بحيث تغطي قممها الثلوج .. وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حول معلوماته عن الرحلة وبدلاً لي أنه قارئ جيد في الجغرافيا والتاريخ ؛ حيث أخذ يصف لي مسار الرحلة وأنا الآن تقريباً فوق تركيا .. وأخبرني أن أوكرانيا بها زراعات كثيرة وأنها تعتبر سلة غذاء الاتحاد السوفيتي السابق .. وأخرج بوصلة وحاول تحديد مسار الرحلة والقبلة كذلك وبينما نحن كذلك إذ جاء المضيف فجلس بالكرسي المجاور لي ولم تمض لحظات حتى راح في سبات عميق .. !! ويغير جنبه من حين لآخر فينظر إلى الساعة أو إلى الركاب ثم يعود إلى النوم .. وبعد قليل حدث ما هو أعجب فقد جاءت إحدى المضيفات وأيقظت ركباً كان يجلس خلف منير وتبادلا الحديث قليلاً ثم قام الرجل لها فجلست مكانه ثم نامت هي الأخرى ، وعجبت من هذا الطاقم المضحك ولا سيما أن محمود حدثني أنه طلب من إحداهن كوباً من الماء فأخذت تكلمه في حنق ففهم أنها تقول له أنها سوف تأكل الآن (هو أنا فاضية لكم .. عايزة أكل) .. وبالفعل أحضرت طعاماً وجلست تأكل على أحد المقاعد ثم بعد أن نسي محمود الموضوع ومرت حوالي نصف ساعة جاءه المضيف بكوب من الماء .. فالطاقم يبدو أنه يرى نفسه متبرعاً بالخدمة .. إذ أنهم لا ريب يتاجرون أيضاً كغيرهم على متن هذه الطائرة فلماذا الإزعاج إذن وكلنا سواء .. !

حاولت أن أنام فلم أستطع فأغمضت عيني في استرخاء حتى اقتربت الساعة من الثامنة والنصف فأخذت أنظر أنا ومحمد من الشباك .. ولم يكن الوقت قد أذن بالغروب وتحديثنا أن الشمس في هذه البلاد تغرب في وقت متأخر عرفنا بعد ذلك أنها تغرب في حدود العاشرة .. ولك أن تتخيل أن آذان المغرب في العاشرة حين يغط أكثر الناس في بلادنا العربية في النوم ، وبعد أن نظرنا إلى صحراء لا ندري تابعة لأي بلد وجدنا اللون الأخضر يكسو كل مكان .. أشجار شاهقة كبيرة متشابكة .. ومجاري مائية فعرفنا أننا وصلنا تقريباً إلى حدود أوكرانيا وأنه لم يبق على الهبوط إلا القليل ، ولاحظت أن أكثر الخضار هو ناتج من تلك الأشجار فمعنى ذلك أن تلك الغابات غير مستغلة في الزراعة وأنها لو استغلت في زراعة الخضار والفاكهة لأثمرت على البلاد خيراً كثيراً بالإضافة إلى معلوماتي أن هذه الأشجار لا تصلح في أغلبها للاستغلال في تصنيع خام الخشب فليس منها كثير فائدة لا سيما أنه في أثناء فترة الشتاء الممتدة لأكثر من ستة أشهر في هذه البلاد تسقط الأوراق ولا يسقى من الشجر إلا عوده الذي يحمل ، ويحفظ الله الحياة للنبات بتراكم الثلج على الأرض وعلى جذور الشجر فيعمل كطبقة عازلة بينها وبين الجو الذي هو أكثر برودة من الثلج .

أتانى صوت المكبر داخل الطائرة بالروسية فقط أيضاً ! ففهمنا أن ذلك إيداناً بالهبوط فاستيقظ المضيفون النيام ويا ترى هل نام السائق أيضاً؟ ربما ! .. وربطت حزام المقعد لنفسى حيث بالطبع لن يهتم أحد بتذكيرى بربطه كما يحدث في جميع المطارات □

كيفية

هبطت الطائرة بسلام .. وازلنا إلى المدرج .. الجو صيفى يميل إلى الربيع .. الركاب ينزلون فى هدوء .. أخذت أنثفت أثناء نزولى السلم هل ينتظرنا أحد . فقد كان المتفق عليه بين وزارة الأوقاف القطرية التى بعثتنا وبين هيئة الإغاثة الإسلامية التابعة لرابطة العالم الإسلامى بالسعودية أن هناك مندوباً سيبتظرنا .. ليعمل كدليل لنا فى تلك البلاد التى لا تتحدث إلا الروسية .. ولما لم أجد أحداً له ملامح عربية أو يرتدى ملابس إسلامية أو يظهر عليه شىء يلفت نظرنا إليه ؛ قلت لعلنا نجدهم داخل صالة الاستقبال .. وتوجهنا مباشرة إلى الحافلة التى تنقل الركاب .. وكان شكلها غريباً ، فهى حافة عادية ولكن لها رأس سيارة نقل وقد ركب الصندوق الذى يحمل فيه الركاب ولونه أصفر وشكله كأنه أتوبيس عادى على شاسيه لسيارة نقل وظلت كابينة السائق هى نفس كابينة السيارة النقل فأثمر ذلك الكائن والذى عرفت بعد ذلك بالتجربة أنه هو المعتمد لنقل الركاب فى كل مطارات الاتحاد السوفيتى السابق .. ركبنا جميعاً وحمدنا الله سبحانه وتعالى على السلامة .. وانطلقت بنا مع بقية الركاب تلك الحافلة حتى وصلنا إلى مدخل الاستقبال .

تجمعنا ثم دخلنا من الباب .. صالة واسعة يبدو أنهم يقومون فيها بترميمات .. وتذكرت ما قاله التاجر الإيراني إن كل شىء تقريباً على حاله منذ ثلاثين سنة لا يوجد فى مكان الاستقبال إلا حوالى عشرة كراسى من الحديد موصولة ببعضها من مقاعدها بقضيب من الحديد .. الكراسى لونها لبنى وقد تقشرت مع الاستخدام فظهر صدأ الحديد الذى هو أسفل ذلك

اللون ، أما المدخل فضيق نسبياً وهو عبارة عن حوالى ثلاثة أبواب عرض كل باب متر تقريباً . مصنوع من الخشب ومركب فى الخشب زجاج كما هو الحال فى أبواب البلكونات داخل البيوت !

الأرض ليست مغطاة بشىء فلا يوجد موكيت أو مشمع مثلاً ، وإنما يوجد بلاط من نوع قديم تأكل من طول الاستخدام .. بدا لى المكان وكأننا فى محطة قطار لقرية صغيرة ، عبر الصالة وفى الطرف المقابل للمدخل يوجد شبك يجلس خلفه رجل . وجدنا أن المغتربين كالتاجر الإيرانى وغيره ذهبوا إليه فتوجهنا إلى هناك حيث لم نجد من يستقبلنا وأخذنا من هناك أوراقاً ملأناها حول معلومات تتعلق بنا ، وسبب دخولنا البلاد .. فملأناها بالإنجليزية .. ثم توجهنا إلى شبك آخر لتدفع بالدولار ثمن دخولنا كسياح فتوجهت إلى الشباك وأنا أحمل جوازات سفرنا جميعاً .. وكان قد سبقنى شخصان كويتيان يبدو من تصرفاتهما أنهما يتوجهان إلى هذه البلاد لأول مرة وأنهما لا يحسنان الكلام بأى لغة إلا العربية .

فى ممر ضيق يفصل الواقف أمام الشباك عن الحائط خلفه حوالى متر واحد .. وقفنا أمام الشباك وقرأت للكوييتيين تسعيرة الإقامة المكتوبة .. أسبوع إقامة بحوالى خمسة عشر دولاراً وشهر إقامة بخمسين دولاراً فاختارنا أسبوعاً واخترت لنا شهراً حسب ما هو متفق عليه مع هيئة الإغاثة .. المرأة الواقفة خلف الشباك لا تتكلم الإنجليزية على الإطلاق بخلاف الرجل الآخر الذى أخذنا منه الأوراق حيث يتكلم الأخير ببعض كلمات منها ، وعجبت كيف يضعون شخصاً ليستقبل السياح لا يتكلم بأى لغة أخرى ! بعد أن أنهى الكويتيان الإجراءات أعطيتها الجوازات وعدتها خمسة جوازات وأشرت لها شهر ثلاثين يوماً . ثلاث إشارات بأصابع يدي العشرة فأشارات خمس مرات بأصابعها العشرة وضحكت فقد كنت قرأت

التسعييرة على الزجاج ، وبدأت تكتب ثم أعطيتها عبر الفتحة الضيقة جداً من الزجاج ثلاثمائة دولار على حسب خمسين دولاراً لكل منا . وبقيت خمسون تعيدها إلى . فأشارت إلى وهى تعطينى الجوازات بأن كل شىء تمام ، فدققت لها على الزجاج مشيراً إلى الفلوس .. فأعطينى الخمسين الباقية .. وإن كنت لا أعرف هل تعمدت استبقائها أم لا .

هذه المرة ذهبنا جميعاً إلى الجوازات وهو شبك آخر قدمنا للضابط الجوازات فأخذ يتأمل كلاً منا على حده ثم ختمها وتوقف طويلاً أمام صورة منير حيث قد امتلأ جسمه قليلاً عن الصورة التى فى الجواز وفى النهاية ختم له بعد أن بدا القلق على وجه منير .

دخلنا إلى صالة أخرى .. خالية من الركاب الذين سبقونا وأنهوا معاملاتهم تقريباً فوجدنا أنه مطلوب منا أن نملأ أوراقاً أخرى وبعد أن أخذناها وجدنا شاباً ذا ملامح عربية تأمل فينا ثم شرع فى السلام علينا واحداً تلو الآخر ، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة : السلام عليكم ، أخوكم عماد عبد الرحيم .. أعمل فى هيئة الإغاثة وأكملنا تعارفنا عليه .. يتكلم اللهجة الشامية .. وفى أثنائها يبدو بعض الكلام المصرى .. أخذ منا الجوازات وقام بنفسه بتعبئتها بالروسية .. ثم توجه معنا إلى السير الذى يضعون عنده شنتط اليد .. السير قديم مهترئ ولكنه يعمل .. ويجلس عنده شخص ذو ملابس قديمة .. الصالة تنقصها الإضاءة لا سيما والشمس قاربت على المغيب .. ونسيت أن أذكر أننا جلسنا نملأ الأوراق على دكك خشبية ، وأتأ أخذنا الأوراق من مكتبة بها رفوف ضيقة على قدر الورقة أشبه بتلك المخصصة للأحذية فى بعض المساجد .

يتنشر فى المكان عجائز يقمن بتنظيف المكان (وتعجبت أفى هذه السن!) .
خرجنا من تلك الصالة لنمر إلى مربعات خشبية طلب منا عندها

تسجيل الأموال التي لدينا فسجلناها أمام إحدى الضابطات .. ولاحظت أنها تفاهم مع عماد بلهجة فيها شدة .. وأنه هو الآخر يرد بنفس الأسلوب فظننت أن هناك مشكلة أو تساؤل فأسررت بذلك إلى عماد فقال لى : ليست هناك مشكلة .. ولكنهم اعتادوا هنا على هذا الأسلوب فى الكلام ثم أضاف : والأوكران نسبة إلى سكان أوكرانيا - أشد جفاءً من الروس (أى سكان موسكو) لأن طباعهم كطباع القرويين أو البدو .

أنهينا ذلك الإجراء ثم خرجنا من المكان .. وعلى بعد خطوات منه تعرفنا على آخرين كانا مع عماد أحدهما يعمل فى الهيئة أيضاً وهو كردى هارب من الاضطهاد ومذابح الأكراد فى العراق اسمه دارا محمود طه والآخر مصرى من الإسكندرية يعمل طالباً فى كيبف بجامعة الهندسة حيث إن للهندسة هنا جامعة بها كليات .. المدنية .. الميكانيكية .. الخ ، واسم الشاب عامر زهران وهو صديق لعماد .. الذى تبين لى أنه مصرى ولكنه يعيش مع أصدقاء له لبنانيين فتأثر بلغتهم .. ذكرنى شكل عامر بخال لى اسمه محمود فهو يشبهه فى ملامح وجهه كثيراً . لذا فقد استرحت إليه وأهاج ذلك فى وجدانى الشوق والحنين للإسكندرية بلدى الحبيب .

أما دارا فهو يشبه إلى حد كبير (على ولاياتى) وزير خارجية إيران السابق . بعد تعارف سريع خرجنا عبر صالة أخيرة إلى الشارع وقد لفت نظرى أشخاص يجلسون قريباً من الباب معهم كلب كبير جداً من نوع (دبرمان) الطويل ويضع صاحبه على فمه كمامة حديدية .. أظهرت تعجبى من حجم الكلب ولماذا يقف به فى الطريق فأجاب عامر: المعتاد هنا أن يكون لكل بيت كلب وتجدهم ينتشرون بهم خاصة فى الحدائق وقت العصر.

خرجنا من المطار .. أين الحقائق ؟ قالوا سنذهب لناخذها من مكان

آخر حدوده لنا .. السيارات واقفة أمام المطار .. لاحظت أن هناك نوعين من السيارات .. إما سيارات روسية الصنع وقديمة فى العادة ، وإما سيارات أوروبية فاخرة مرسيدس وأوبل وبي إم دبليو بما يدل لأول وهلة على أن هناك صنفين من الدخول لمواطنى البلد ولا توجد طبقة وسطى وتلك كارثة. اتفق عماد مع سيارتين لتقلنا نحن الثمانية مع أدواتنا : سيارة فوجلا روسية - وهى سيارة تشبه فى حجمها السيارات الأمريكية لكنها أصغر قليلاً - وسيارة أوبل حديثة نوعاً ما .. واتفق عماد على أن يعطى عشرين دولاراً نظير نقلنا إلى الفندق اليس كثيراً أن ندفع أربعين دولاراً نظير نقلنا إلى الفندق فى بلاد سمعنا أنها رخيصة للغاية .. ركبتنا جميعاً .. وركبت أنا ومحمود محمد وعامر فى السيارة الأوبل وانطلقت بنا السيارتان طريق جميل يحفه الشجر ثم انحرفنا بالسيارتين إلى طريق جانبي ضيق مشينا فيه قليلاً ثم توقفنا أمام منطقة مغلقة يفترض أن الشنط قد وصلت إليها .. ذهب عماد والذين معه فى السيارة للسؤال عن المكان وبقينا نحن فى مكاننا.. الجو مائل للحرارة .. وملئ بالهوام الطائرة .. هاموش وناموس .. لم أطق الجلوس فى السيارة فأشرت على الإخوة بالوقوف ووقفنا بجانبها نتحدث .. وكالعادة دائماً بدأت بسؤال محدثي :

- ما هى طبيعة دراستك يا عامر ؟

بدا الاهتمام على وجهه وهو يقول :

- دراستى للهندسة المدنية ؛ فكليتنا مختصة بذلك فقط فهى كلية

الهندسة المدنية .. وقال :

- إنهم لا يتركون عموماً فرصة للطالب ليكون فارغاً فنحن على سبيل المثال

قد انتهينا من الدراسة قبل قليل وهم الآن يطلبون منا نشاطات عملية. سألته:

- وما طبيعة ذلك النشاط ؟ قال :

- يخترعون لنا أى شىء فمثلاً يطلبون منا القيام بترميم وصباغة مبنى
الجامعة سألته :

- هل الدراسة سهلة أم صعبة ؟ قال :

- عادية .. وعموماً نحن ندرس سنة تمهيدية لتعلم اللغة ثم أربع سنوات
للدراسة التخصصية وستين للماجستير . قلت :

- ولماذا تدرسون الماجستير ألا يمكن الاكتفاء بالبيكالوريوس ؟ فقال :
- ولكنهم فى مصر يعادلون الماجستير بالبيكالوريوس . فسألته عن
مصاريف الدراسة ؟ قال :

- أما عن نفسى فأنا مرشح لمنحة عن طريق منظمة التضامن
الأفروآسيوى .. وقبل سقوط الاتحاد السوفيتى كان يخرج دعمه لمنظمة
اليونسكو عن طريق فتح المجال أمام المنح الدراسية لدول مختلفة .. وأضاف
باستهزاء وكأنه يتذكر الأيام الخوالى للاتحاد السوفيتى :

- نحن لا يمكن أن نأخذ ثمننا للعلم .. قلت :

- والآن ؟ .. قال :

- تغير كل ذلك بعد السقوط .. فطبعا هم الآن يأخذون مصاريف
دراسية تختلف من جامعة لأخرى ومن دراسة لأخرى وكذلك من بلد
لآخر .. ومع الأسف مع تغير أحوال المعيشة يمكن الآن عن طريق الرشوة
التحكم فى أشياء كثيرة . قلت :

- كيف ؟ .. قال :

- يمكن للطالب أن يدفع رشوة لثلاث يحضر الدراسة ، بل وصل الأمر

إلى تغيير نتائج الامتحانات .. سألته :

- لماذا أتيت إلى هنا مع أنه كان بإمكانك أن تدرس فى مصر دون أن

تعانى مشقة الغربة ؟ قال :

- لأننى لم يكن لدى المجموع الذى يمكننى من دخول كلية الهندسة
حيث أُرغب . قلت :

- وماذا حدث إذن ؟ قال :

- قدمت فى كلية التجارة وبعد انتهاء السنة الأولى جاءنى القبول من
المنظمة فحُتت .. قلت :

- وأضعت هذه السنة ؟ قال :

- وماذا أفعل ؟ ..

طالت الوقفة وانضم بعض النحل إلى مظاهرة الناموس والهاموش
المحيط بنا ، قلت متأففاً : لعل الحشرات بهذا الحجم وهذه الكثرة فى كل
كيفية .. ابتسم قائلاً :

توجد حشرات ولكن قليلة ويبدو لأننا فى منطقة نائية ومليئة
بالمستنقعات لذا يكثر فيها الناموس .. وانشغل بقتل نحلة كانت تحوم حولنا
كثيراً .. لمحت من بعيد سيارة "زل" من نفس نوع السيارات النقل
المستخدمة لقوات الأمن المركزى فى مصر .. ونفس اللون الزيتى .. قلت
ضاحكاً : وهل جاء الأمن المركزى إلى هنا أيضاً ؟ .. فعلق مبتسماً وقال :
إنها ليست سيارات حكومية فقد تكون مملوكة لبعض الأفراد .. تاملت
من الوقوف .. ثم قلت له :

ما رأيك أن نتمشى باتجاه الإخوة لعلنا نساعدهم فقد تأخروا علينا ،
فقال محذراً :

لا يمكننا أن نترك السائق مع شنط اليد الخاصة بكم فقد يأخذها ويمشى
وتذكرت كافة التحذيرات .. سكتُ قليلاً وتأملتُ فى المكان من حولنا ثم
علقت لمحمود على منظمة التضامن الأفراسيوى قائلاً :

يا أخى لا أعرف عن هذه المنظمات شيئاً فهى أسماء نسمع عنها ولا

ندرى ما حقيقة نشاطاتها ؟ قال عامر :

لقد أخبرنى عنها أحد أقربائى .. وسنة ما أتيت كانت هناك عشر منح لم يخرج من مصر وقتها إلا أنا وطلب آخر .

وهلّ علينا عماد مقبلاً من بعيد وهو يشير إلينا لتتحرك إليه فركبنا السيارة وأدركناه فى الطريق وركب معنا بجوار عامر ، ومشينا بالسيارة إلى مسافة بعيدة وقال عماد : إنهم يضعون الشنط فى قرية للبضائع على أساس أن القادمين كلهم تجار ولا بد من التأكد من امتلاك كل شخص لما يأخذه .

مالت الشمس للمغرب .. عند اقتراب الساعة من العاشرة والنصف بتوقيت كيف ولم نزل وقوفاً ننتظر أن يأتى دورنا للدخول والبحث عن الشنط .. بدأت أشعر بالتعب وأردت الذهاب للحمام فأسررت بذلك لعماد فسأل وأرشدنى إلى مكانه .. ثم أعطانى زجاجة فارغة لأحتفظ ببعض الماء لاستخدامه بالداخل فهى خالية من الماء .. قلت فى نفسى يبدو أن هناك فروقاً كثيرة بين بلادنا وتلك البلاد .. حمام قديم كقدم المكان ، صحبنى عماد إلى هناك وأدخلنى ثم وقف ليبتظرنى بالخارج .

وعندما خرجت وقفت مع عماد لحظات أتأمل فى حوض للزهور أخاذ الجمال أمام مكان الحمام وأنا أقارن وأتعجب من التناقض بين جمال مخلوقات الله تعالى وقذارة بنى الإنسان .. داخل الحمامات لا سيما إن كان ذلك الإنسان ملحدأ أو شيوعياً سابقاً !

سألت عماد ونحن فى طريق العودة : هل تعمل فى الهيئة منذ فترة طويلة فقال :

إننى فى الأصل أدرس الهندسة بكلية النسيج .. وكثير من الهيئات هنا تستفيد من وجود العرب الدارسين للعمل معها حيث يتقنون اللغة وقيمون فعلاً بالبلاد بالإضافة إلى أن تشغيلهم سيكون له فائدة فى دعوتهم ولا

يخلو الأمر من فائدة اقتصادية حيث لا يعطونهم مثل من يحضرونه من الخارج ..

علقت قائلاً :

كل شيء في هذه البلاد يعتمد على الطواير ؟

دخلنا وبحثنا عن الشنط فوجدنا كل الحقائق إلا كرتونة معلبات أحضرناها لاستخدامها عند اللزوم ، وظللت أبحث لأنني الذي اشتريتها وأعرف شكلها وأخيراً وجدتتها بعد عناء .. ثم انصرفنا .. تذر السائقان من طول الانتظار وهددا بالانصراف إذا لم نزد لهما الأجرة فاضطر عماد لمضاعفة الأجرة فصارت ثمانين دولاراً وعلقت محمودة بكلمة واحدة : استغلال ! ..

كانت الدنيا قد أظلمت .. ولا توجد إضاءة إلا على بعد كبير .. ثم بدت لنا امرأة تطل من كشك علوى عند باب الخروج .. لا بد من دفع رسوم للخروج .. نزل عماد إليها .. أين مكان دفع الرسوم .. أشارت إلى مكان بعيد . ذهب مغضباً إليه وقال أكل هذا الجهد لندخل إلى البلد بعض الزوار . لم لا تجعلون دفع الرسوم على البوابة .. جلسنا في السيارات ننتظره .. وعلقت قائلة مسكينة تلك المرأة .. تجلس في هذا المكان وحيدة طيلة الليل .. مكان معزول مظلم .. في منطقة نائية بعيدة .. أردف عامر :

وهذا هو حال المرأة دائماً في هذه البلاد أنها تقوم بأعمال شاقة وصعبة فمثلاً لا يقوم بأعمال البناء والصباغة والسياسة وغيرها هنا إلا النساء كما أنها تقوم بجميع أعمال النظافة وقيادة سيارات النقل الجماعي (التربليوس) سألته عن (التربليوس) فقال :

مثل الترام عندنا في الإسكندرية ولكنه له حرية حركة فهو خليط بين الأتوبيس والترام .. قلت : عرفته أليس هو مثل (التربلي باص) الذي كان

موجوداً في القاهرة .. قال : لا أعرف .. قلت : بلى هو فقد كان في القاهرة أتوبينيس يسير على الكاوتشوك ولكنه يستمد الطاقة بواسطة الكهرباء قال نعم هو .. علققت قائلًا : وهذا المشروع قد ألغى الآن من القاهرة فقد كان يسبب كثيراً من الزحام والاختناق .. أضاف متهمكاً : ولكنه لم يبلغ من هنا فهو في أغلب مدن الاتحاد السوفيتي السابق .. قلت : وهذا أيضاً تقوده النساء فماذا يفعل الرجال إذن .. قال : إنهم يستنكفون عن امتهان هذه المهن وقد كانت الشيوعية تنادى وتظنطن كثيراً عن أهمية عمل المرأة ومشاركتها للرجل سواءً بسواء .. الرجال في الأغلب يعملون في المصانع .. قلت في نفسي : كم ظلمت المرأة بتلك الشعارات فأخرجوها من البيت فاختل البيت ثم أسلموها لتلك الأعمال الشاقة لتزداد تعاسة ببعدها عن البيت ثم تعبها في العمل فماذا بقي لها من الأنوثة بل من الآدمية .. عاد عماد مرة أخرى وقدم للمرأة الأوراق وانطلقت بنا السيارات بعد أن سُمح لنا بالمرور .. جلست أتأمل في الطريق .. طريق طويل محفوف بالأشجار .. فالمطار في منطقة نائية .. جلست أنظر إلى الطريق ليس فيه إنارة كما هي العادة في الطرق السريعة .. وعجبت لأنه خال كذلك من العاكسات الضوئية الصغيرة التي توضع في أغلب الطرق السريعة الآن لتحديد الخطوط الأرضية وللسير على هواها .. الطريق عريض نسبياً ذكرني بطرق القاهرة والسائق يضيء الطريق أمامه بالنور العلوي للسيارة .. لاح من بعيد شبح شخص يقف على جانب الطريق في الظلام .. يبدو أنه ينتظر سيارة عامة تقله فهو واقف بجوار مظلة خرسانية كتلك التي توجد عند محطات الحافلات .. اقتربت السيارة أكثر وأنا أنظر إليه بتلقائية .. ما هذا .. إنه ليس شخصاً واحداً .. إنهما شخصان .. رجل وامرأة .. متعانقان .. أشحت بوجهي .. قلت لعامر .. نحن جئنا إلى هنا للدعوة وبما أنك من سكان

كيف نريدك أن تعطينا نبذة عن الدعوة هنا وأحوال المسلمين .

قال : طبعاً أنت تعرف أنني طالب ، وليس لدى عموماً خبرة في أغلب وجوه الدعوة هنا ولكن سأقول لك ما أعرفه .. مثلاً يوجد هنا عرب كثيرون ومن جنسيات مختلفة أغلبهم طلبة في الجامعات ، وغالباً يكون كل نشاط بحسب همة الطلاب فيها ، فأنا أعرف طلبة جزائريين ولبنانيين هنا يقومون بالدعوة وإلقاء الدروس ولكن أغلبهم الآن مسافرون في العطلة .

قال محمود : هل يوجد هنا مركز إسلامي ؟ .. فقال : إلى الآن لا يوجد ويبدو أن هناك مشروعاً لذلك .. منير : وكيف تصلون الجمعة إذن ؟ قال : في مصليات الجامعة .. قلت : وهل يسمح لكم بالصلاة في الجامعة ؟ قال : نعم .. وكما قلت إن بعض الإخوة لهم نشاط يركز على مساجد الجامعة كما أن لهم بعض الدوريات والجرائد يوزعونها بين حين وآخر .. سألته : وعامة الناس ؟ قال : الأوكران أغلبهم مسيحيون ، وبعد السقوط عادوا إلى مسيحياتهم .. وعموماً الناس هنا لا يفقهون شيئاً عن الأديان ولكن توجد الآن موضة التدين بين الشيوعيين . قلت : موضة ؟ ! .. قال : نعم فالتحضر الآن هو أن يعتنق ديناً .. أو بالأحرى أن يؤمن بوجود الله .. كما كانت الموضة قبل ذلك الإلحاد .. أيام بداية الشيوعية .. قلت : إذن فإن الموضوع هو نوع من الرفض للشيوعية يعبر عنه في صورة اعتناق دين .. قال : تقريباً ، لذا نجد أن أغلب الأديان والمذاهب هنا تعمل .. ولها دعاة .. ومراكز .

قلت : والمسلمون ؟ قال : يوجد هنا الشيعة لهم نشاط كبير - نظرت إلى محمود ومنير ثم قلت : وكيف نشاطهم ؟ قال : ينظمون حلقات تعليم .. واحتفالات في المناسبات .. وكذلك يصدرون المجلات والجرائد كما قلت لك .. سألته هل من الممكن تهيئة محاضرة أو إلقاء ندوة للعرب في أثناء تواجدهم .. قال ممكن ولكن لا بد من بعض الوقت لأخذ الإذن من الجامعة

وتهيئة المكان وإخبار الناس .. قلت لمحمود : ما رأيك ؟ قال نتشاور فى ذلك ..

وكان الاتفاق بيننا على أن نرجع بالقول إلى مسئول واحد كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر فقال (إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمرُوا أحدكم) وكان أن اتفقنا على محمود .

لا تزال السيارة تسير ، ومن بعيد بدأ لنا شاطئ نهر عرضه حوالى ثلاثين متراً سألت عامر : ما اسم هذا النهر ؟ قال دنيبر . قلت : ديبير . قال : لا دنيبر .. انحرفت السيارة إلى اليمين فوق كوبرى علوى يمر فوق النهر وبعد أن مشينا قليلاً بدأ لنا "التربليس" وهو مزدحم تقريباً علق محمود .. ولا تزال الدنيا زحام .

ساد الصمت .. ثم وصلنا بعد حوالى عشر دقائق إلى الفندق .. أنزلنا الشنط من السيارات ثم دخلنا .. إنه ليس فندقاً كما نظن .. إنه أشبه بما يسمونه (بانسيون) ، الباب من الشارع يطل على باب آخر داخلى بينهما مسافة حوالى متر ونصف وهذه العادة منتشرة فى تلك البلاد بحيث تكون المسافة بين البابين طبقة عازلة عن الجو البارد ، أما الباب الداخلى فيطل على صالة بحيث إذا استمر الداخل فى السير قابله سلم للصعود إلى الأدوار الأعلى ، وعلى اليمين مكتب الاستقبال .. وكان خالياً من الموظفين وتوجد أمامه ثلاثة من كراسى الفوتيه وشماعة للملابس وعرفت فيما بعد أن شماعات الملابس منتشرة فى كل مكان حيث يخلع كل داخل من الخارج البالطو الثقيل الذى يلبسه عليها ويتحرك فى المكان المدفأ بواسطة تسخين المياه فى المواسير بحيث تمر المياه الساخنة من متبع حكومى وتضخ إلى البيوت أو إلى أى مكان عام .. على الطرف الأيسر من الصالة توجد مساحة مشابهة للطرف الأيمن ليس فيها إلا شماعة ملابس وجهاز تليفون

يعمل بالعملة المحلية ، المكان يلفه قدم لافت للنظر .. وقذارة لا تخطؤها العين ، صعدنا على السلم ثم دخلنا إلى اليمين فمررنا فى طرقة عرضها حوالى متر تطل على غرف على الجانب الأيمن للدخال عرفت فيما بعد أنها مكاتب مؤجرة لشركات وكان منها غرفة خاصة بإدارة الفندق . تكلم عماد مع عجوز بداخلها وأخذ منها مفاتيح الغرف .. صعدنا .. وأخذ كل اثنين منا غرفة .. أنا ومحمود أخذنا غرفة على يمين الطرقة مقابلها منير والطيب وبجوارها دارا والقحطاني وعلى أول الطرقة عماد وعامر .

تكون غرفتنا من سريرين ودولاب لوضع الأمتعة حاولنا فتحه فلم يفتح فلم يفتح ! الأرض لا يغطيها شيء وإنما تغطي كل أرضيات الغرف بمشمع قديم .. وبالعرفة شبك طويل يطل على حديقة صغيرة تفصل بين مبنى الفندق والمبنى الذى يليه .. والحق أن نظام البناء وترتيب البيوت هنا جميل؛ فكل عمارة لا بد لها من منفذ ترى منه الحدائق والتي بالطبع تغطيها الثلوج فى الشتاء فينتهى المنظر البديع الذى نراه فى الصيف من اكتساء كل تلك الحدائق بالخضرة الجميلة .. وسط هذا الجمال الربانى من الحدائق الجميلة تقف العمارات التى أقامها الشيوعيون على طراز واحد فى الأغلب وبلا أى لمسات جمالية أو معمارية وهى شبيهة إلى حد كبير بتلك العمارات التى يسميها الناس عندنا بالإسكان الشعبى .. وأغلب البيوت فى كيف حوالى خمسة طوابق مرتفعة البناء بلا أى مصعد ! بعد أن استقر بنا المقام فى الغرف وحيث بدلنا جهداً مضميناً فى الصعود بامتعتنا إلى الحجرات .. نظرت إلى عماد بعد أن أنهكنى التعب وقلت معلقاً : ألم يكن هناك فندق أفضل من ذلك ؟ .. قال وكأنه ينتظر منى أن أغير المكان : بالفعل يوجد طبعاً ولكنها غالية وعلى العموم كله عليكم .. وتاملت أن الغربة فى هذه البلاد تجعل من ساكنيها أشخاصاً أشداء .. كما أنها تطبعهم بطباع مادية

معينة .. فكل إنسان مسئول عن نفسه .. لا بد له من توفير أسباب معيشتها ،
إنه ليس له علاقة بغيره ولو على سبيل المجاملة .

دخل الجميع إلى غرفهم ، وانشغلنا قليلاً بترتيب الأمتعة حيث كان
التعب قد أنهكنا ثم استعد كل منا للصلاة .. فقد تبقى لنا صلاة المغرب
والعشاء فصلبها جمع تأخير .. خرجنا للصلاة حيث وجدنا مكاناً به
تليفزيون قديم موضوع على ترابيزة قديمة وكرسیان قدران للغاية من
الكراسى الفوتيه المنجدة بمخلوط من الصوف والدوبار .. وقد تكونت على
أذرعها طبقة سوداء دهنية من الوسخ فكنت أشمئز من مجرد النظر إليها ..
كما توجد ترابيزة ونبته ظل غير معتنى بها .. المهم أن هذه المعدات العظيمة
موجودة فى صالة صغيرة .. يبدو أنها أعدت كاستراحة لنزلاء الدور .

أعدنا المكان للصلاة فأزحنا الكراسى .. وحددنا القبلة بالبوصلة ..
واتخذنا البطاطين المعدة للنوم كمفارش للصلاة عليها .. ووقع اختيار
الإخوة على العبد لله ليؤمهم فى الصلاة . كان المتفق عليه بين وزارة
الأوقاف وهيئة الإغاثة الإسلامية أن تنزل مجموعتنا إلى كيبف ثم تنتقل
منها إلى شبه جزيرة القرم والتي كانت ذات أغلبية مسلمة حتى نقيم
هناك دورة لتعليم الدعاة من ساكنى البلد .. بحيث نكون قد ساهمنا فى
وقت قصير فى مساعدة إخوتنا هناك بشىء من العلم وتصحيح بعض
المفاهيم كما أن وجودنا لاشك سيشد من أزرهم .. حيث سيفيدنا ذلك فى
التعرف على أحوالهم بشكل عام .. ونشاهد أوضاعهم عن قرب .. كان
بالاتفاق إذن على أن نذهب جميعاً إلى هناك .. ثم بعد انتهاء مدة الدورة
ننتقل جميعاً كذلك إلى موسكو لإلقاء محاضرات أخرى هناك .. ولكننا
بعد أن انتهينا من الصلاة جلسنا معاً لتناول العشاء من الملبات التي
اصطحبناها من الدوحة .

فقال عماد : الحقيقة أن هناك ترتيباً آخر غير المتفق عليه حيث إن عددكم أكثر من احتياج المهمة التي فى القرم لذا فقد قررت الهيئة أن يذهب ثلاثة منكم إلى موسكو مباشرة فى حين يتجه آخران إلى القرم للقيام بالمهمة هناك .. أثار ذلك الخبر قلقاً بيننا .. فقد كنا هيئاً أنفسنا على البقاء معاً .. ففوجئنا بهذا الخبر الذى يحكم علينا الافتراق .. وهنا بدأنا نشعر بشيء من الحيرة .. خلوت أنا ومحمود فى حجرتنا .. ومحمود هو الوحيد الذى لى به معرفة سابقة وطويلة .. فى حين أننا - أنا وهو - لا نعرف أحداً من مصطحبيننا إلا عندما دعينا للسفر .. ومعنى ذلك أننا لا نعرف قدرات الآخرين من الخطابة .. والرد على الأسئلة والشبهات أو التصرف فى الأمور العامة ، وبما أنا قد أنطنا بمحمود المسئولية فلا بد لنا من حل .. والمشكلة الآن هو أنه لا بد لنا من الافتراق .. ومن المنطقى أن يكون كل منا فى مجموعة بحيث لو اكتشف أن قدرات المجموعة غير مناسبة للقيام بالعمل والمحاضرات قام بذلك وحده ، استقر الأمر إذن على أن يكون محمود فى مجموعة وأنا فى مجموعة أخرى .. فمن با ترى فى هذه المجموعة ومن فى تلك .. ؟ قلت لمحمود أنا شخصياً ليس عندى مانع أن أذهب إلى القرم ، وكنت أستحضر فى نفسى أن أكتب مذكواتى عن الرحلة فأريد أن أذهب إلى أكثر من مكان لتزداد تلك المذكرات ثراءً .. ولكنى سرعان ما اكتشفت أن تلك رغبة الجميع تقريباً ومن ثم وجدنا الحل الأمثل فى الاقتراع .. فاقترعنا قرعتين .. قرعة خاصة بى أنا ومحمود وقرعة خاصة بمنير والطيب والقحطانى .. فأسفر الاقتراع عن تحديد سفرى أنا والطيب إلى القرم .. وأن يذهب بقية الإخوة إلى موسكو .. ويبدو أن رغبة منير كانت شديدة فى السفر إلى القرم فأخذ يراود محمود على أن يعيد القرعة أن يأذن له أحدنا فى التغيير .. والحق أنه ليس من عادتى أن أمتنع عن

رغبات إخوانى إلا أننى لم أجد مبرراً كافياً منه لأغير موقعى معه فرفضت حيث شعرت أن المصلحة التى ذكرتها أقوى من رغبته فى مجرد التعرف على مكان جديد .

انتهى الأمر إذن باستقرارنا على مجموعات السفر .. وقال عماد : بما أنكم لم تحصلوا على تأشيرة موسكو . وحيث إننا نحتاجها جميعاً .. لذا فسنقيم هنا حتى نحصل عليها من السفارة ثم تسافر المجموعتان إلى الجهتين المحددتين . سألته وكم يستغرق ذلك قال يومان على الأكثر سنقدم للتأشيرة غداً ونستلمها بعد غد إن شاء الله .. عندما خلوت بمحمود قلت : لماذا لا نجلس هنا فى كيف قليلاً ما دمنا موجودين فيها فعلاً ..؟ قال : إن لنا مهمة محددة نريد إنجازها .. قلت له : ولكنك سمعت من عامر عن وجود بعض الطلبة العرب ونريد أن نقيم لهم محاضرات إن استطعنا ، وما دمنا لن نتأخر إلا بضعة أيام فما المانع من ذلك قال فلنحاول إن نلتقى بهم غداً .. سكت على مضض .. ولكن فكرت وقلت لنفسى إذا فلتحت فى تهيئة لقاء فى الغد فلعل ذلك يكون حافزاً للمجموعة أو على الأقل لمجموعتنا على الانتظار .

طال بنا السهر ومع ذلك لا نزال نشعر بالحيرة بعد أن استرحنا .. خرجت من الحجرة قاصداً عامر .. وذهبت إليه فى حجرته مع عماد .. وجلسنا قليلاً نتجاذب أطراف الحديث .. وفى استرخاء أخذ عماد يعلق على أن الحياة هنا تغيرت سريعاً فى السنوات الأربع الماضية .. وقال إنه فى أول عام أتى إلى هنا أنفق مائة دولار فقط فى خلال العام كله ! وأنه اشترى منها دولاباً وسريراً وبعض أدوات للمطبخ .. وأنفق البقية الباقية على المواصلات والطعام حيث يأخذ الطالب هنا حجرة مشتركة مع زميل فى سكن الطلاب .. ثم تنهد عامر قائلاً : ولا تكفى أضعاف هذه الأموال لنفقة

شهر واحد ، وذلك يرهق ميزانية الأسرة التى تنفق على الطالب المغترب .. ولذا فإن أكثر الطلاب يسعون للعمل أو التجارة أثناء مدة دراستهم .. وهذا شيء صعب ؛ فالدراسة تتطلب تفرغاً لأن أغلب الطلبة يدرسون مواد علمية كما أن طبيعة التجارة فى البلد لها أوضاع خاصة فى وجود المافيات . سألت فى فضول حدثونى عن المافيا فقد أثار الحديث عنها رغبتى فى التعرف على نشأتها . قال عمار : إنها طبقة تكونت بعد سقوط الشيوعية وهى عصابات منظمة تفرض أتاوات على التجار وغيرهم من الأغنياء والسياح حتى الهيئات الإسلامية لا تنجو أحياناً من مطالبة المافيا لها بالأموال . قلت : والذى لا يدفع .. قالوا : فى الأغلب يكون جزاؤه القتل . قلت : معقول .. القتل .. قال عامر : بلا أدنى رحمة .

سألت وكيف تكونت تلك العصابات ؟ قال : بعد انتشار البطالة وعقب انهيار الشيوعية وارتفاع الأسعار وهذا التغير السريع فى المجتمع شعر أولئك بأهمية الثراء السريع فأخذوا هذا السبيل حيث لا دين يمنعهم ولا حكومة قوية تقف أمامهم .. قلت وكيف تكونوا إذن ؟ أجاب دارا : أكثرهم من الشيوعيين الذين كانوا يعملون فى جهاز المخابرات (الكى جى بى) قبل انهيار الشيوعية ، لذا فقدراتهم عالية فى استخدام الأسلحة كما أن لديهم مهارات أخرى مختلفة اكتسبوها من عملهم كعملاء للمخابرات . والغريب أن بعضهم لا يزال يعمل فى المخابرات حيث يتسنى لهم مع تواجدهم فى أماكن عملهم بالاطلاع على أسرار معينة تساعدكم على التعرف على الفرائس التى يصطادونها .. دار رأسى وأنا أتخيل ما يحدث .. قلت وهل يشارك المسلمون فى شيء من ذلك ؟ بدا الاهتمام على وجهه وهو يقول نشأ كرد فعل عصابات أخرى من المسلمين وهم يحملون نفس الصفات الإجرامية إلا أنهم غالباً لا يهاجمون إلا الكفار ويبررون لأنفسهم

ذلك بأنهم قد نالوا من الشيوعيين الأذى الكثير عبر سبعين عاماً حكمها الشيوعيون وأن الأوان لتصفية تلك الحسابات .. وأردف عامر : أمر معقد.. قلت : بالطبع ولكن فعلهم مذموم بلا شك .. سألت وهل يهاجمون المسلمين ؟ قال عماد : أحياناً حسب طبيعة المافيا ، وقد تحدث مواجهاً بين المافيات وبعضها تسال فيها الدماء أنهاراً .. سألت بالنسبة للمسلمين من المافيات هل هم من قوم معينين قال أغلبهم من الشيشان وهم قوم أشداء بطبيعتهم ومنهم بالمناسبة رسلان حسب الله توف رئيس البرلمان الروسى السابق ومنهم كذلك الأوزبك وفيهم ضخامة فى بنيتهم وقوة وإن كانوا أقل جرأة من الشيشان .

تملأ دارا فى جلسته ثم قال : وبالمناسبة نذكركم طبعاً ألا تفتحوا الأبواب عند سماع الطرقات عليها إلا بعد التأكد تماماً من شخصية الطارق لأنهم كثيراً ما يتبعون هذه الأساليب مع الغرباء لسرقتهم بالإكراه .. ابتسمت فى كلل ثم نظرت إلى عامر وقلت له : ألا تستطيع أن تحدد لنا موعداً مع بعض الطلبة العرب بحيث نقيم محاضرة أو حتى لقاء دعويّاً محدوداً .. فقال : أنت تعلم أننا الآن فى إجازة الصيف وسيكون من الصعب التحضير لمحاضرة عامة لا سيما أن أكثر الإخوة هنا على سفر ولكنى سأحاول ترتيب لقاء بينكم وبين بعض الإخوة هنا وبالذات أخ جزائرى نشيط فى الدعوة .. عندئذ شكرته وانصرفت إلى الغرفة .. فقد كنت متعباً من مجهود ذلك اليوم الحافل □

فى الفندق

استيقظت صباحاً وأنا أكثر نشاطاً واستعداداً للعمل .. فسألت عن عماد وعامر فقالوا : إن عماد ذهب إلى السفارة الروسية لتأخذ تأشيرة الدخول ، وعامر ذهب للمشروع الذى تلزمه الجامعة بالانخراط فيه للتدريب .. نظرت من الشباك وجلست قليلاً .. أغلب الزملاء نيام من جراء اليوم السابق ، دفعنى الفضول إلى النزول إلى باب الفندق ثم أخذت جولة فى المستطيل المحيط به .. الشارع أمام الفندق عريض قدرت عرضه بحوالى ٢٥ متراً والحياة تسير بشكل رتيب و(الترامفاى) تمتلئى بركابها .. وتأملت فى كلمة الترامفاى تلك فإن أهل الاسكندرية يطلقون على (الترام) اسم (التروماى) كما يطلق أهل القاهرة (الترلى باص) على (التربوس) الذى رأيناه سابقاً . فهل يعد هذا من آثار أيام الاشتراكية التى أحدثت تداولاً لبعض الكلمات بل وغيرت فى المفاهيم المنتشرة والعادات المكتسبة والتى منها اللامبالاة .. المنتشرة فى كثير من صور التعاملات .

الجو صيفى جميل والخضرة تملأ المكان .. إن أجمل ما فى هذه البلاد هى تلك الطبيعة الخلابة التى حباها الله بها .

مشيت بجوار خط الترامفاى قليلاً ثم انحرفت يمينا فى أول شارع ثم يمين فيمين إلى الفندق مرة أخرى .. الحياة هادئة .. ولكن لفت نظرى وجود كثير من الناس فى الشوارع : شباب من الجنسين ونساء وأطفال ورجال وشيوخ .. إنهم فى الغالب يتسكعون وفى وقت يفترض أنه من وقت العمل الرسمى .. ألا يعمل هؤلاء ؟ .. سؤال تردد فى نفسى وقلت سأطرحه على الإخوة .

مر علينا يومان ونحن بانتظار التحرك وليس لنا من دور نقوم به إلا تلك المناقشات الجانبية مع عامر وعمار .. كان السبب في تأخرنا أن عماد كلما ذهب لأخذ تأشيرات الدخول من سفارة روسيا يجد زحاما شديداً عليها من الطلبة الذين يرغبون في الذهاب إلى موسكو فهم يملأون شارع السفارة .. ويقف شرطيان على بابها يمنعان الناس من الدخول إلا عدداً معيناً كل يوم وبالطبع من يدفع لهم سيدخل ومن لا يدفع لا يدخل ضمن هذا العدد ، ولم يدفع عماد .. فلم يدخل ! وينتهي اليوم عليه في محاولات الدخول فيعود إلينا في الرابعة تقريباً .

سأل منير: ولماذا يحرص الطلبة على الذهاب إلى موسكو؟ فقال عماد : إن الكثير من المصالح لا يزال مرتبطاً بموسكو ولا سيما شهادات التخرج العلمية .. وعلى العموم ما زالت موسكو تمثل ثقلًا كبيراً في الجمهوريات التي استقلت عنها . أضاف عماد سأحاول إن شاء الله غداً أن أقابل السفير أو حتى القنصل لنأخذ لكم التأشيرة فمن منكم يريد أن يأتي معي فقال محمود أنا .. يبدو أن عماد المسكين قد أتعبته تلك المهمة السخيفة .

قال عماد : نريد أن نتمشى قليلاً في البلد .. أن نزل إلى المحلات ونغير الجو عموماً .. وافقت وغبته تلك حوائجنا ؛ حيث كان الملل قد تسرب إلى نفوسنا بعد قضاء ثلاثة أيام في الفندق .. وحيث لا نجد لنا غداءً إلا ما كان معنا من المعلبات .. فول وجبن وسمك وتمر وعسل .. فلا نأكل إلا بعضها في الإنظار وفي الغداء والعشاء .. تعاطف معنا دارا وقال : اتفقت مع عامر على أن نذهب غداً صباحاً سوياً لنشتري لحمًا إسلامياً من جزار مسلم أعرفه .. سنذهب سوياً فأطبخه لكم .. وارتفعت الضحكات مباركة تلك الخطوة فقد أنهكنا أكل المعلبات فهنا تنعدم المطاعم الإسلامية ..

أردفت أياً كان طبيخك فسيكون شهياً يا دارا ..

قال في ثقة : ومع ذلك فأنا طبابخ ماهر □

جولة قصيرة

خرجنا بعد تناول غدائنا المعتاد لنتنزه كما اتفقنا .. ذهبنا أولاً إلى مركز للمحلات قبل أن ننزل إلى وسط البلد .. واشترينا بعض الهدايا التذكارية أغلبها أطباق خشبية سوداء مرسوم عليها باللوان الزيت باقات زهور متقنة وشكلها جميل ، وعلمنا أن هذه الأطباق والبراويز هى تقريباً أكبر ما يميز المنتجات الجمالية فى هذه البلاد .. اشتريت كذلك لوالدى ولوالد زوجتى بدل صوفية قيمة الواحدة حوالى ٢٥ دولاراً ثم لم نجد شيئاً آخر سوى المنتجات غير المحلية أى المستوردة والتي تمتلئ بها أغلب المحلات حتى الحكومية منها ، فكل المعروضات تقريباً من أحذية وملابس وأجهزة كلها من صنع الخارج وأسعارها مرتفعة .. وما لفت نظرى كذلك أن طرق العرض فى المحلات بدائية جداً فهم مثلاً يضعون الأحذية على طاولات طويلة بلا نظام لا فى الألوان ولا فى الأشكال والمقاسات ...

إن وسط البلد عبارة عن شارع كبير به حديقة جميلة بها نافورة وقريب منها مجموعة المحلات والتي أغلبها حكومية والأخرى صغيرة خاصة ، كما تنتشر أكشاك لبيع المرطبات والخمور المستوردة .. وأكشاك أخرى تبيع العملة وبالمناسبة فعملة البلد اسمها (كوبون) وكل مائة دولار تساوى أربعة ملايين ونصف كوبون .. قلت معلقاً على ذلك وأنا أضع الكوبونات داخل جيبى .. أين أصحابنا الآن ليرونا ونحن أصحاب ملايين ! وبالطبع لا تشتري تلك الملايين إلا القليل .. فإن رغيغ الخبز بحوالى عشرين ألف كوبون .. وزجاجة المياه الغازية بحوالى ٤٥ ألف .. ينتشر فى المكان مصورون للصور التذكارية يحملون نسانيس أو أرناب ليمسك بها من يريد

التقاط بعض الصور التذكارية ، وهم بالطبع يلتقطوننا من أشكالنا العربية ليعرضوا علينا خدماتهم .. الزحام شديد وخاصة حول النافورة الصغيرة على الرصيف العريض من الشارع وقد تمشيت جيئة وذهاباً .. باحثاً عن مكان للجلوس على الدكك الخشبية المنتشرة ففشلت ؛ فكل دكة يجلس عليها حوالي ٨ أشخاص وهي تكفيهم بالكاد .. والناس تقريباً من جميع الأعمار .. وقف داراً يتحدث إلى أشخاص كرديين يبدو أنه تعرّف عليهم من أشكالهم بينما تمشيت قليلاً .. وأخذت أنظر إلى المحلات من الخارج ثم قابلني بائع جرائد وقفت بجواره أنظر إلى الكتب والمجلات التي يعرضها فلم أجده يبيع شيئاً بلغة أفهمها إلا أنني وجدت عنده نسخاً عدة معروضة لمجلات يبدو من غلافها أنها مجلات جنسية مما أثار اشمسزاي فأسرعت الخطو خلف الإخوة □

الرهبان

قال لي محمد الطيب ونحن لمجلس سوياً في حجرته في الفندق إن مشرفة الدور سألت عماد : هل نحن رهبان ؟ وهل هناك شيء يمنعنا من النظر إلى النساء ؟ .. قلت معلقاً : لعل ذلك بسبب أننا نغض أبصارنا .. وأن هذا شيء لم تعتد عليه .. وماذا قال لها عماد ؟ .. قال محمد أجابها : بأننا أشخاص عاديون .. وأن عندنا أسر وزوجات ولكن هذا من أدب الإسلام .. قلت يا أخى ما أعظم الإسلام والله إنه ليسمو بالإنسان عن كل سوء .. فيها نحن نرى أولئك الذين يتهمون المسلمين زوراً بأنهم شهوانيون وأنهم يعددون الزوجات من أجل ذلك .. نرى نحن أثر الفوضى فيهم وكيف قلبت حياتهم تعاسة .. إن هنا - كما سمعت - من يسمون الأمهات الوحيدات .. وهن نساء ينبجن من الفاحشة ثم يربين أولادهن ويتحملن أعباءهن ، ولا تملك الواحدة منهن دليلاً يدين أباه أو حتى قد لا تعرف من هو .. وكانت هذه الحالات معترف بها رسمياً إلا أن الحال تبدل بعد تخلى الشيوعية عن كل ما كانت تلتزم به فقد كان للجميع حقوق أو هكذا سموها ولكنها سقطت مع الشيوعية ..

استأذنت لأدخل الحمام وهو متر فى متر يكفى بالكاد لدورة المياه مضافاً إليها مربع للاستحمام يرتفع عن الأرض برقع متر ولا أدري ما الحكمة فى ذلك الارتفاع .. المهم أننى اغتسلت ثم خرجت بعد حمام منعش لأسمع طرقاتاً شديداً على الباب .. (دا) .. يعنى نعم بالروسية .. ونفذت أوامر الإخوة ألا نفتح لأحد حتى نستوثق منه وجاءنا صوت امرأة غاضبة من خارج الحجر ، تتكلم بالروسية ، وقفت قليلاً لأنشجع وأفتح فإذا بها فرأشة

الدور التي تقوم بالتنظيف تشير بغضب إلى بعض آثار الماء التي تسربت من الحمام - بسبب اغتسالي - إلى خارج الحجرة وبالطبع لم يكن بالحمام ما يمنع سريان الماء إلى خارجه ولعل هذا سبب ارتفاع مربع الاستحمام عن الأرض .. وبالطبع ليس لدى هؤلاء ذوقيات التعامل المنتشرة في الفنادق الحقيقية الأمر الذي دفعها للتصرف بهذا الأسلوب ، وشعرت برغبة دفينة في أن أضربها جزاء ما ضايقتني بصياحها إلا أنني اكتفيت بكلمات عربية لم تفهمها بالطبع ! عبرت لها بها أن هذه ليست مسئوليتي في هذا الفندق القدر .. ثم أغلقت الباب أمامها وهي ما تزال تثرثر .. ثم جلست بالداخل وأنا أضحك من الموقف □

اتصالات دولية :

على مقربة من الفندق يوجد مكتب للبريد به تليفون دولى فرغبت أن أتصل بالأهل فصحبنى عامر إلى المكان وجاء دارا معنا ، وقال عامر لعامل التليفون نريد الاتصال بالدوحة (بالخاء) حيث إنهم ليس لديهم حرف أقرب للخاء من الخاء ويكتب كحرف (X) إكس بالإنجليزية .. وأثار ذلك فضول العاملة وسألته : أين مكان الدوحة ؟ فقال لها : قريب من البحرين فعرفته .. ثم طلبت الرقم ووقفت فى كابينة التليفون أتصّبب عرقاً فهى ضيقة وليس بها فتحة للتهدية ، ويبدو أن هذه البلاد صممت من أجل البرد فقط .. قبل أن ألتقط الخط انصرف عامر وبقي دارا وهو لا يعرف الروسية جيداً .. إنما هى بضع كلمات فقط يتعامل بها .. ثم أخيراً جاء الخط .. وانتظرت على الطرف الآخر فترة طويلة .. فالتليفون فى قطر ليس به نغمة مميزة بالخط الدولى تلفت الانتباه .. وجاءنى بعد فترة صوت حبيب إلى إنها ابنتى الصغيرة سمية .. عمرها حوالى ستين .. يا سمية فىن ماما .. تقول مرودة ماما : .. طيب هاتى إيمان بسرعة - أختها الكبرى - فتردد إيمان .. باسمية أنا بابا فتقول بابا .. يبدو أننا لن نتمكن من التفاهم سوياً .. فتحت الباب وسألت دارا لو أغلقت التليفون الآن هل من الممكن أن نسترد بقية ثمن المكالمات قال نعم .. فأنهيت المكالمات اللطيفة ثم ذهبت متفائلاً إلى دارا الذى بدوره تفاهم بلغته مع الفتاة ثم انصرفنا ، وسألته إن كان استرد شيئاً من الدولارات التسعة ثمن المكالمات فقال لا .. إنها قالت لا يمكن ذلك حيث إن ثمن المكالمات ثابت .. فشعرت بالأسى ضاعت المكالمات وأخذوا الفلوس !

أردت فى المساء أن أكرر الاتصال فصارحت عماد برغبتى فقال إن

المكتب القريب يغلق أبوابه فى الثامنة بعد الظهر ! ولا أقول مساءً ، فالمساء من بعد العاشرة ، وكانت الساعة تجاوزت العاشرة والنصف ليلاً عندما خرجت أنا وعماد ومنير إلى الشارع قاصدين مركز المدينة لنجرى أنا ومنير اتصالات دولية .. وظللنا أمام الفندق عشر دقائق بانتظار سيارة مناسبة لتقلنا .. وقد أخذت تعبير (مناسبة) لأن هناك سيارات غير مناسبة إما أن يكون من بها أكثر من أن نركب معهم أو أن بها نساء أو ما أشبهه .. على العموم المعروف هنا أن كل السيارات الخاصة تنقل ركاب مقابل أجرة .. وهذه العادة لاحظتها فى كل مكان ذهبت إليه فى هذه البلاد ، فنظراً للظروف المعيشية المتدنية سرعان ما نجد أى سيارة تشير إليها لتتجدالاً فى الأجرة ليُقلك إلى أى مكان تريد .. ولا يمنع وجود أسرة صاحب السيارة أو صديقته مثلاً من أن يفعل ذلك .. وصلنا إلى مركز المدينة ونزلنا إلى نفق للمشاة لنخرج إلى الطرف الثانى من الشارع .. زجاجة خمر مكسورة على الأرض .. وصلنا إلى مركز الاتصالات وبانتظار الدور .. وقفت قليلاً فأصابنى الملل فالجو ليس به تهوية .. فما بالك بداخل كابينة الاتصال .. الأمر الذى يدفع المتصلين لفتح الكابينة أثناء وقوفهم فيصل إلى سامعى خليط من أصوات لا أصرف أغلبها .. وكان أحدهم يتكلم بالعربية وآخر بالإنجليزية والباقى بالروسية تقريباً .. وقفت على الباب الخارجى فإذا برجلين يستندان ثالثاً بينهما ينزلان من دور علوى .. ظننت لأول وهلة أن ثالثهم هذا مريض أو أصابه شىء ، ولكننى سرعان ما استنبطت من زيغ عينيه وتموج حركته ثم من ابتسامة امرأة تقف للحراسة أمام الباب .. أنه مخمور لأول مرة أرى مخموراً .. ولأول مرة أرى إنساناً بهذا الشكل المزرى ..

لقد امتنع كثير من عقلاء العرب عن شرب الخمر حتى قبل إسلامهم لما

رأوا ما تفعله فى شاربيها .. منتهى الضعف والمهانة .. تابعتم بنظرى ..
ذهب أحدهم ليحضر السيارة ، وأجلسوا صاحبهم على حجارة دائرية
أسفل عمود الكهرباء أمام مبنى الاتصالات ..

أحضر الرجل السيارة وأسرع الآخر ليفتح الباب تاركاً المخمور مكانه
فلم يتمالك نفسه أثناء جلوسه فسقط على الأرض محدثاً صوتاً زاد من
اشمزازى من شكله فدخلت إلى مكان الاتصال مرة أخرى .

أتمت الاتصال بحمد الله تعالى ثم اتصل منير من نفس الكابينة وخرج
ثلاثتنا إلى الشارع .. سرعان ما لاحظت أنا وعماد أن منير متضايق .. يبدو
أن شيئاً ما أحزنه فى المكالمة .. اقترح علينا عماد أن نتمشى قليلاً قبل العودة
ليرفه عن منير ..

وبالفعل تمسشنا فى نفس الشارع باتجاه السكن .. وبعد قليل أثناء سيرنا
لاح لنا أربع نساء يمشين بالاتجاه المقابل لنا .. الرصيف عريض ولكنهن
ظلن يمشين باتجاهنا .. قلت لعماد .. ما هذا ؟ قال : لا أدرى يبدو أنهم
مخمورات .. انحرفنا إلى اليسار فانحرفن جميعاً باتجاهنا .. وأصبحنا على
بعد خطوات .. وقد تراءى الجمعان .. وإذا بالمرأة التى أمامى تسرع الخطى
باتجاهى كصديقتين حميمين التقيا بعد غياب ويبدو أنها فوجئت بعدم
استجابتى ؛ فانحرفت بعيداً عنى قبل ارتطامنا .. قال عماد معلقاً لو كانت
اقتربت أكثر للكتمتها بقدمى فى بطنها .

أكملنا السير والهدوء يلف المكان ويداعب وجوهنا نسيم عليل ..
وأشجار باسقة .. لولا الغربة وعدم الشعور بالأمان فى هذه البلاد
لاستمتعت بها كثيراً □

تأشيرة روسيا

استيقظت صباحاً لأجد عماد ومحمود يستعدان للخروج كما اتفقا للحصول على التأشيرة .. وأخبراني كذلك بخروج عامر ودارا ليجهزا للغداء .. كل شيء على ما يرام .. جلست أقرأ أمام النافذة في حجرتي ، ثم خرجت فتمشيت في الحديقة الصغيرة خلف الفندق .. بها مراجيح للأطفال ولكنها كالعادة قديمة وقد تعطل منها الكثير ، والأطفال هم الأطفال يلعبون بالمتاح .. ظللت أسير في دائرة حول الفندق حتى لا أفقد الطريق وأنا أتأمل في أشكال المباني .. كل شيء على حاله منذ ما لا يقل عن ثلاثين سنة تماماً كما أخبرني التاجر الإيراني في مطار الشارقة .. وقفز إلى ذهني سؤال .. يا ترى ماذا يقول الناس في هذه البلاد بعدما عاشوا الشيوعية ثم رأوا سقوطها .. وتيههم بعدها .. أتراهم يتحسرون على الشيوعية ؟ .. ألم تكن تكفيهم مؤونة تلك الحياة الصعبة التي يعانون منها الآن .. رجلان وامرأة يقفون في الطريق حول صندوق يبدو أنهم يريدون نقله إلى داخل البيت .. ويبدو أن هناك خلافاً بين الرجلين والمرأة تهدى من روع أحدهما .. رجل كبير قد تخطى الخمسين فيما يبدو لى .. والمرأة تربت على كتفيه بحنان .. سبحان الله لغة لا أفهم منها شيئاً ويعيش بها ملايين البشر! .. تابعت تفكيري وقلت لنفسي إنه هذا التيه الذي خلفته الشيوعية وراءها ليس نتيجة غيابها ؛ وإنما هو نتيجة سلوكها السابق أليست هي التي امتصت خيرات الشعوب التي احتلتها ليمتنع بها الحزب الشيوعي ومن حوله .. وقتلت في الناس الشعور بالإبداع واستقلال التفكير ثم بلذنها الأكبر .. وهو الكفر بالله تعالى خالق الكون ورازقه فجعلت الدعوة إلى الإلحاد مبدأها فماذا

تنتظر أن تُخلف .. قفز إلى ذهني صورة ذكرها الأستاذ/ عبد الحليم خفاجي في كتابه القيم (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون) حيث سجل فيه مناظرات قامت بين الشيوعيين والإخوان أثناء التقائهم في السجون .. ومنها مقارنة بين حال الزنازين التي فيها الشيوعيون والأخرى التي فيها الإسلاميون .. فرق واضح .. الإسلاميون يستيقظون مبكرين .. ينظفون المكان ويرتبون الأعطية .. وتراهم متفائلين .. متحابين .. متعاونين .. أما الشيوعيون فيستيقظون متأخرين .. قذارة في السلوك .. اختلاف دائم .. تباغض لا يخفى ..

عاد عماد ومحمود بعد ساعات .. يبدو عليهما أثر وقوف في الحر .. لقد أخذنا التأشيرات أخيراً .. قالها عماد .. قلت لمحمود أحقاً؟ قال : نعم ثم ضحك وقالولكن بطريقة عجيبة .. قلت كيف .. قال عماد ابداً .. دخلت للقتنصل لأعرض عليه الأوراق .. فقال بعد أن طالع صوركم .. وماذا سيفعل هؤلاء في موسكو؟ قلت : إن معى دعوة من هيئة الإغاثة .. فبدأ عليه عدم الاقتناع ثم رفض فخرجت واتصلت من الخارج بالسفير وطلبت مقابلته .. وما أن دخلت عليه حتى أخرجت مائة دولار له قائلاً إن هؤلاء ضيوف عرب يريدون أن يذهبوا إلى موسكو ولم يتمكنوا من إحضار هدية لك فرجاء قبول هذه الدولارات بدلاً من الهدية .. قلت سبحان الله أخذاً؟! قال : طبعاً .. قلت السفير؟! .. سفير روسيا؟! قال: نعم .. ضربت كفاً بكف .. حتى السفير يأخذ رشوة .. ورشوة نافهة كهذه ، أضاف عماد اتصلت بالسفير بالقتنصل أمراً إياه بإعطائنا التأشيرات فعدت إليه فإذا هو يتميز غيظاً .. واتصل بالسفير ثانية ويبدو أن الأخير أغلظ له القول .. فظل يملأ التأشيرات بيده وهو يتمتم بكلمات غاضبة □

سكن الطلاب

كنت ألبس أنا والطيب الثوب العربى عندما مررنا بالممر أمام مشرفة الدور وعلى الطرف الآخر كان عماد واقفاً .. رفعت المرأة صوتها مخاطبة عماد فضحك منادياً علينا أنها تقول إن الثياب التى تلبسونها جميلة .. وهى تتمنى أن ترتدى ثوباً مثله .. فضحكنا .. فيما أنها ترى أن ملابسنا نسائية أو أنها تريد ارتداء ملابس الرجال .. ودخلنا الحجرات .

لقد تأخر دارا وعامر .. والساعة قد تجاوزت الثالثة ظهراً .. وما زلنا بانتظار الأكل الجميل .. أخيراً حضر دارا وقال إن الأكل على وشك الانتهاء .. وإن كانوا لم يجدوا لحمأ أو دجاجاً مذبوحاً إلا أنه قام بطهى كوسة وأرز عند بيت عامر فى سكن الطلاب ..

اقترح عماد علينا - أنا ومحمود - أن نذهب سوياً إلى سكن الطلاب فى كيبف لنساعد الإخوة فى إحضار الطعام ، وفى نفس الوقت قد نجد الطلبة العرب فتتعرف عليهم .. ولعلنا نأخذ منهم موعداً .. وبالفعل ذهبنا على أقدامنا مسافة ليست بعيدة .. سألت عماد .. كيف أتيت إلى هنا ؟ قال أبداً فأنا كنت عضواً بحزب العمل الاشتراكى فى مصر وهم الذين رشحونى للبعثة إلى هنا . قلت إذن أنت تعرف عادل حسين ومجدى حسين وغيرهما من أعضاء الحزب ؟ قال : نعم .. وأنا ما زلت أرسل الجريدة ولكن باسم مستعار ، وقد حدث ذات مرة أن تشاجرت مع ضابط شرطة تمسف فى تعامله معه فذهبت إليهم وقلت لهم إن لم توقفوا هذه المهزلة فسأترك الحزب إلى غير رجعة .

وصلنا إلى سكن الطلاب .. المبنى مشابه للبناء المعتاد فى البلد لكن به

بعض البلكونات .. أمام المبنى وجدنا مجموعة من الشباب أشكالهم عربية يقفون بتسكع بجوار الباب الرئيسى ومعهم فتاة شقراء أوكرانية يبدو أنهم يتنافسون عليها من طريق خفى .. إنهم جميعاً فى أواخر العشرينات .. يبدوون تماماً كشلل الكليات من الطلبة الفاشلين الذين لا هم لهم إلا الجلوس فى الكافيتريات والحديث مع البنات .. فيرسبون السنوات الطوال ويكبرون .. من حيث لا يشعرون .. وهم ما زالوا على نفس السلوك .

قلت لنفسى : وهذا أيضاً من حصاد الاشتراكية إياها .. شباب يتكون بلادهم وأهليهم لشعارات طنانة ثم يأتون إلى هذه البلاد حيث النساء وغياب الرقباء وقلة الاكتراث بالدين فيحدث منهم ما نرى ، وقد يعودون بعد ذلك إلى بلادهم على أنهم علماء أو مثقفون .. وقفنا وسلمنا عليهم .. فسلموا علينا بعضهم بدهشة وبعضهم باستغراب ثلاثة منهم تقريباً من الشمال الأفريقى .. من المغرب أو تونس أو الجزائر .. وكان أحدهم مصرياً .. دعانا إلى حجرتة .. فى الحقيقة لم أسترح إلى شكله .. فى وجهه جمود .. لا أدرى هل بسبب جفاء الغربية أم جفاء اللقاء ؟ سبقنا عماد إلى الدخول .. لم يفتنى أنه سارع إلى مداراة زجاجة كانت على المنضدة التى تنتصف الحجره .. استأذن عماد ليصعد إلى عامر .. وجلسنا مع صاحب الوجه الجامد .. حدثناه عن مهمتنا وأنا جئنا للدعوة ولقائكم .. رحب بنا .. فجلسنا نحدثه عن أهمية دور العرب فى هذه الأماكن وأنهم قدوة .. وأن المسلم ينبغى عليه أن يحفظ دينه وأن يعلم أنه عنه مسئول .. أحسست أنه لم يتفاعل معنا .. وسرعان ما استأذن وخرج من الحجره .. نظرت إلى محمود ونظر إلى .. وتصارحنا إلى مشاعرنا فوجدناها متطابقة .. إن على الداعية أن يدرك أن طريقه ليس مفروضاً بالزهور .. على الأقل نحمد الله على أن فى الناس بقية من الخير بها ينصتون إلينا .. ولا يسيئون لنا .

أجلت نظري في الحجرة .. حجرة عادية كتلك التي في سكن المغتربين
في مصر وما كانت لتخلوا بالطبع من بعض صور خليعة للنساء .. الحجرة
متوسطة الحجم وبها دولا ب ملابس ودولا ب صغير وسرير مفرد ومنضدة
تجلس عليها وحولها كسيان وأمامها منضدة أخرى متوسطة يضع عليها
بعض أغراضه .

جاءنا عماد وعامر .. (إيه يا بنى ما هذا التأخير؟) .. تبادلنا الابتسامات
مع عامر ورفض الاثنان أن نحمل عنهما الطعام .. كم نحن مشتاقون إلى
طعام مطهى .. فمنذ قدومنا ونحن لم نأكل إلا الجبن والمعلبات .
غادرنا المبنى .. ولا أحتاج طبعاً إلى التذكير بقدم المبنى ولا إلى تقليدته
المعتادة فقد اعتدنا على هذه النمطية في أغلب المباني □

إلى اللقاء

لم يعد لنا فى كريف مقام بعد أن حصلنا على تأشيرة موسكو وبعد أن فشلنا فى إيجاد فرصة مناسبة للقاء عام بالطلبة عن طريق عامر لأن أغلبهم قد سافروا كما قال لنا ، وكنا قد اقترعنا على من سيسبق إلى موسكو ومن سيسافر إلى القرم فكانت قرعة القرم من نصيبى أنا والطيب كما ذكرت آنفاً.. إذن فسترحل المجموعتان .. أنا والطيب ودارا إلى القرم ومحمود ومنير والقحطاني وعماد إلى موسكو .. قام عماد بحجز تذكرة سفر بالقطار إلى موسكو .. وكان الموعد بعد غروب الشمس وذهبنا جميعاً لتكون فى وداعهم .

إن محطات القطار تنبض دائماً بالحياة حتى فى الليل وهى كذلك تضم نوعيات مختلفة من البشر ما بين المسافرين وتباين أشكالهم ، والموظفين وسيرهم الحثيث ، والبائعين وما يحملونه من البضائع من الخبز والفودكا إلى الخناجر والجرائد .. والمفاتيح ، ثم أخيراً هى مأوى المتشردين وأصحاب العاهات وبعض المتخلفين عقلياً .

لم يطل انتظارنا .. حتى وصل القطار .. فساعدنا إخواننا على إبداع حقائبهم فى حجرات النوم .. سألت عماد : كم تستغرق رحلتكم ..؟ قال : حوالى ست أو سبع ساعات .. القطار متوسط القدم وكذلك حجرات النوم داخلية .. كل حجرة تتكون من أربعة أسرة : سريران سفليان وسريران علويان يصعد إليهما الراكب بسلم صغير .. كان هناك بعض الوقت قبل أن يبدأ القطار رحلته أمضيناه على الرصيف نتجاذب الأحاديث الباسمة والأمنيات باللقاء السريع .. وكنا نحن المسافرين إلى القرم سنركب الطائرة إليها بعد يومين .. لم تفتنى نظرات حادة يحدجنا بها شخص مفتول

العضلات يقف بجوارنا ويده زجاجة كبيرة من الفودكا يتجرعها بنهم .
مرت حوالى نصف ساعة عندما ارتفع صوت القطار مؤذنا بالتحرك
ومعه امتدت الأيدي مصافحة ومودعة ثم انصرفنا نحن الأربعة .
كنت أمشى ودارا تسبق خطانا عامر والطيب وأخذ يقص على كيف أنه
اضطر ذات مرة أن يركب قطار النوم فى رحلة طويلة إلى الجهات الشمالية،
وكيف أنه لم يكن معه فى الحجره سوى فتاة روسية .. وكيف أنها كانت
تتعهد إغراءه .. فطلب من مشرفى القطار تغيير مكانه فلم يجدوا له مكاناً
خالياً .. فبات فى هذه الحالة من المقاومة والإغراء إلى أن سلم الله بطلوع
الصباح ووصول القطار .. رددت عليه : إنك بذلك تعرض نفسك للانهار
فقد كان أولى بك أن تخرج من الحجره ولو أن تقضى الليل خارجها فإن
البعد عن الفتن المنجع فى علاجها من مقاومتها مع التعرض لها .. فإنه ما
خلى رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما يزينه لها ويزينها له .. التفت
إليه وأنا أحدثه .. فلم أجده بجوارى .. ظللت أنظر إلى مكانه فلم أجده
فقد حال بيننا مرور مجموعة من المسافرين .. مرت دقائق وأنا أتفكر
وجوه المارة لعلى أعثر عليه فلم أجده أثراً وبدأ القلق يتسرب إلى نفسى
فأنا فى هذه البلاد غريب بكل معانى الغربة .. لا أعرف لغة أتفاهم بها ولا
أثق فى الناس من حولى حتى إننى لا أعرف صفة أو اسم الفندق ولا الحى
الذى هو فيه .. فلم يخطر ببالى أن يحدث ذلك لى ثم فوق ذلك فإننا فى
المساء وما قيل عن الظلام فى هذه البلاد كثير .. الاستعانة بالله تعالى
والدعاء فى مثل هذا الموقف هو الحل الناجع حيث يقول تعالى (أمن يجب
المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله ..
قليلاً ما تذكرون) .. وقلت لنفسى إن التصرف الأمثل أن أتوقف عن المسير
وأتنظر فى مكانى .. فهذا يسهل عملية البحث عنى .. وكان الفرج ..
والتقينا جميعاً بعد هذه اللحظات العصبية والتي تعلمت منها أن يكون فى
يدى خيط لطريق الوصول إلى البيت □

جولة فى النهر

نهر دنيسر ذلك النهر المتراعى الأطراف .. كان يلفت نظرى كلما مررنا عليه ؛ فهو عريض متسع ولونه الرصاصى الفاتح يبرق مع أشعة الشمس المنعكسة .. وتنتشر على جانبيه معالم مختلفة للمدينة منها مبان عريقة لم تمنح لنا فرصة زيارتها ..

سألت عامر : هل من سبيل لجولة فى النهر فقال إنها فرصة لتشاهدوا المدينة كلها بين ضفتى النهر وراقتنى الفكرة فأنا أهوى السباحة وركوب البحر .. وأخبرنى عامر أن هناك مرسى للقوارب .. فاقترحت على محمد الطيب أن نذهب إلى هناك .. فوافق على مضض .. يبدو أنه لا يحب ركوب البحر .. وذهبنا .. وركبنا جميعاً ؛ خليط من البشر .. واقتربنا من شباب يبدو عليهم أنهم من العرب وتعرفنا عليهم .. إنهم من اليمن وقد أتوا للدراسة .

أخذ محمد الطيب يكلمهم بينما انشغلت بالحديث إلى عامر .. وسألته : لقد سمعت بأنك سبق لك أن تزوجت من هنا .. لاحظت أنه فوجئ بسؤالى ، فسكت برهة ثم قال : نعم .. فقلت : وماذا حدث ؟ قال : افترقنا .. قلت : وما السبب ؟ قال : لقد كانت حماتى امرأة متسلطة تتدخل دائماً فى حياتنا ، ثم إن الطباع والعادات مختلفة . قلت مؤمناً : يبدو أن مسألة اختلاف العادات والطباع هذه تكون فى الغالب سبباً لفشل كثير من الزيجات .. عند اختلاف الجنسيات والديانة ، فإنهم يكونون متشبعين بصفات مادية كثيراً ما تكون السبب فى نفرة أزواجهم من المسلمين الذين تربوا على معانى الكرم والإخوة والعلاقات الاجتماعية المترابطة .. أردف

قائلاً: وهذا تقريباً ما حدث معي .. يبدو أن التجربة بالنسبة له كانت مؤلمة..
فغيرت الموضوع .

مرت المركب ذات الطابقيين فى النهر لمدة زادت على النصف ساعة
قطعنا خلالها شوطاً لا بأس به ، ومررنا فى أثناء ذلك ببعض المعالم المتميزة
للمدينة فهناك كوبرى كبير يمر عليه الترامفاى والسيارات كما أن هناك
بعض الكنائس المرتفعة ذات القباب المطلية بالذهب المتقنة البناء والتي يبدو
عليها أنها بنيت فى عصور متقدمة .

ومن بعيد لمحنا شواطئ ينزل عندها المصطافون للسباحة أو الاستلقاء
على الرمال حيث الشمس التي غابت عنهم لثمانية أشهر .
ملأت عيني من كيف بعد أن عدنا من جولتنا كمودع لتلك البلد التي
ذكرتني بالاسكندرية بجوها الصيفى ، وتوسط ازدحامها ، وتوسط
شوارعها كذلك وهي تتميز عن الاسكندرية ببعض شوارع أفسح ،
وبحداق أكثر تنتشر بين البيوت أو هي أشباه غابات عشوائية أحياناً قد
تشعر بالرهبة عند اجتيازها □

إلى القمر

فى اليوم التالى حزمنا أمتعتنا وتوجهنا إلى المطار ومعنا عامر .. وكنا قد تسوقنا من سوق المدينة واشترينا بعض الهدايا .. ولذا أصبحت حقائبنا مثقلة بالأطباق الخشبية التى وصفتها أنفأ ، ولما كانت رحلة الطائرة قصيرة فإن الأوزان التى نحملها تجاوزت المسموح به ، وكالعادة أخرج عامر بعض الدولارات فحلت المشكلة بانتقالها إلى جيب موظفة الطيران .. إنه الفراق إذن .. قلت لنفسى وأنا أتأمل وجه عامر البشوش وهو يشد على يدى مودعاً : كم يعلمنا السفر القسوة فتتولد العلاقة ببعض الأشخاص فلا نرى غيرهم صباحاً ومساءً ثم نفارقهم فجأة تماماً كحال الدنيا التى يقول فيها رسول الله ﷺ (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

على عكس ما كانت الطائرة التى أقلتنا إلى أوكرانيا من الشارقة فكانت تلك الطائرة الجديدة .. فهى كطائرات الخطوط المعتادة بها كراسى لكل الأشخاص ، وبها أحزمة فى المقاعد وبها مضيفات يعرفن بعض الإنجليزية .. وكان معنا كنز كبير هو دارا والذى يعرف بعض الروسية أيضاً !

على مقربة من مقعدنا كان يجلس شاب ذو ملامح عربية وبجواره امرأة روسية ترتدى شورتاً وتتكلم معه أحياناً .. وكان أقربنا إليه مجلساً دارا فنظر إليه ملياً ثم تشجع وكلمه ، وكنت أجلس بجوار دارا ودار حوار بيننا عرفنا من خلاله أنه من فلسطين وقد أتى ليكمل الدراسة هنا ، ومع انخراطنا فى الحديث تجرأت وسألته عن المرأة التى بجواره هل هى زوجته فقال : لا إنها معلمتى وقد جاءت معى لتقدم لى فى الجامعة .. بدا علينا عدم الاقتناع وقلت لنفسى الله المستعان شاب وامرأة أجنبية عنه وتساfer معه

بالطائرة وبالطبع ستقيم معه فى مكان ما ..

كان الأخ هذا من فلسطين وظل يحدثنا عن القضية !
وبعد ذلك أخرج لنا مجلات من جماعة الجهاد من فلسطين وأهداها لنا
وقرأت فيها .. أكثرها تتحدث عن الفكر الرفضى وأخبار محلية وكانت
هذه أول مرة أتعرف فيها على فكر جماعة الجهاد التى بفلسطين وارتباطها
بإيران ولبنان .

وصلنا بحمد الله تعالى إلى القرم .. مدينة صغيرة هادئة .. وفور
وصولنا صباحاً ذهبنا مباشرة إلى المسجد .

إن الدخول إلى المسجد بعد غيبة له فرحة فى قلب المسلم يا ليت من
يحرم نفسه من نعمة التواجد بالمسجد وهو يقدر على ذلك يا ليتته يدرك
تلك الحقيقة ..

يقع المسجد فى شارع جانبى عرضه حوالى ثلاثة أمتار ، وبعد الدخول
من الباب الخشيبى العريض الذى يرتبط بالسور القديم للمركز نجد بنايتين
الأقرب إليك على اليسار هى المبنى القديم وتقع فيها صالة صغيرة وأمام
الداخل إليها غرفة للدراسة وعلى يساره يقع المصلى وفيه حجرتان إحداهما
للمفتى والأخرى لأعمال الحسابات .

أما البناية الجديدة فلا تزال تحت الإنشاء وهى التى تقع على يمين
الداخل من الشارع وتحوى مسجداً كبيراً ذا مثلثة .

بدخول ثلاثتنا إلى المسجد وجدنا مجموعات لقراءة القرآن وحفظه
وكان القائم عليها مجموعة شباب انشروا لرؤياهم وتعرفت عليهم :
وائل من فلسطين ، وعبد اللطيف من اليمن ، وصالح من مصر ، وعمر من
ليبيا .

كان الإرهاق بادياً علينا من جراء الرحلة فاقترح علينا الإخوة أن نذهب

إلى شقتهم حيث سنقيم معهم .

ذكرتني (القرم) بعواصم بعض المحافظات المصرية التي تنتشر فيها الخضرة أيضاً - كالإسماعيلية - فهي صغيرة الحجم إذا قورنت بكيف لكنها جميلة ، وتنتشر فيها المصايف والشواطئ - والتي لم أرها بالطبع لضيق الوقت أو لتجنب الفتن التي لا تخلو منها الشوارع فما بالك بالشواطئ ! ولأن حجم شوارعها لا يتعدى العشرين متراً عرضاً - في أغلبها - فإنك قد تظن أنها أكثر ازدهاراً من كيف وليست كذلك .

كما أن وجود خطوط الترام العادية قد يربك المرور في بعض الأحيان ..
أما أشكال الناس فهم خليط بين الروس والأوكران بأشكالهم الأوربية -
والأوكران بالمناسبة أجمل من رأيت في تلك البلاد شكلاً - والمسلمين
بأشكالهم الفارسية أو التركية أو العربية أحياناً □

العمل

ما إن حللت بالمكان حتى شعرت أننا بدأنا العمل فيها هو المسجد وهذه هي المجموعات ثم ها هم مجموعة من الشباب العرب .

وكان أول عمل قمنا به أن زرنا أبا الحسن مع عبد اللطيف اليمنى ذلك الشاب الهادئ المهذب الذى يدرس الطب فى آخر عام له فى هذه البلاد.. وكان معنا دارا والطيب أيضاً وأبو الحسن قريب للمفتى سيد جليل وشقيق زوجته .. فكانت فرصة لتحسس الوضع ورؤية القائمين على العمل عن قرب .. كانت الفكرة التى كونتها عن المفتين ومن حولهم فى هذه البلاد عموماً لا تتعدى عدة احتمالات : أحسنها أن المفتى شخص مجتهد لكنه قليل العلم جداً ، وأسوأها أنه عميل للمخابرات الروسية ، وما بين هذا وذاك درجات من النفعية والمحسوبة وخليط من كل ذلك .. وهذه الصورة وجدتها صادقة إلى حد كبير فى كل البلاد التى رأيتها هنا

فالمفتى إما شخص حريص على الدعوة بيد أنه قليل العلم بعدما حيل بين القوم وإسلامهم عشرات السنين ، وإما هو نفعى بحت وجدها فرصة سانحة ليُنمى رأس ماله على حساب كل شىء حتى الدين ، والثالث يجمع بين ما سبق بالإضافة إلى درجة العمالة مع المخابرات الروسية التى تريد أن يكون لها يد فى تلك البلاد التى انفصلت عنها من قريب .

لم تكن عادتى أن أسىء الظن بمن أراه وهكذا التقيت بأبى الحسن فى مساء الليلة التى وصلنا فيها ورحب بنا الرجل فى منزله المتواضع ، ودار حديثنا عن الدعوة والمسئولية التى تقع على عاتق الدعاة وكان تركيزى أساساً على أن الداعية لا بد أن يعمل بالإمكانات المتاحة ، وتعمل أبو

الحسن بأن الأموال قليلة .. فضربت له بعض الأمثلة قائلاً : ليس كل شيء يعتمد على الأموال ؛ فهناك الجهد والعمل وإعطاء الدروس لا يحتاج إلى كثير مال بل ولله الحمد إذا اجتهد الداعية ستأتيه إن شاء الله الأموال التي تعينه على الدعوة .. وقلت له : إنه لا تقوم دعوة إلا ببذل ، والدعوة التي يبذل أصحابها لها ويهبوها أوقاتهم وأعمارهم دعوة لن تموت بإذن الله .

وضربت له المثل من إخواننا الدعاة في مصر كيف أن أحدهم يذهب ماشياً أحياناً أو يعاني من ازدحام المواصلات العامة ليذهب إلى أماكن بعيدة ويقاسى وعورة الطريق وحر الشمس حيناً وبرد الجو تارة أخرى حتى يبلغ للناس دعوة الله تعالى .

بدا عليه الاقتناع .. وكذلك كل الحاضرين .. فأردفت : والله لقد رأيت بعض إخواني في الجامعة يجمعون مصروفات أيديهم القليلة ليطبخوا أوراقاً للدعوة أو ليساعدوا فقيراً أو لينصروا قضية .. لا بد من البذل .. ومنتظر الأجر والعون من الله ..

وكان كلماتي كانت رسالة للحاضرين .. سرعان ما رأيت ترجمتها على أفعالهم وابتساماتهم ، وجلسنا بعد ذلك نتجاذب أطراف الحديث مع أكواب الشاي التي أعدها لنا أبو الحسن ..

وبعد ذلك خرجنا باتجاه منزلنا ، وفي الطريق تكلمت مع عبد اللطيف لقد حضر إلى هنا منذ أربع سنوات أي قبل انهيار الشيوعية بحوالي عامين .. وحكى لى شيئاً طريفاً .. فقد كان يسافر كل شهر مرة ليزور أهله فقد كانت تكلفة تذكرة الطيران وقتئذ خمسة عشر دولاراً للرحلة (!) سبحان الله أي انقلاب أصاب حياة القوم في تلك البلاد □

المركز الإسلامي

في الصباح ذهبنا إلى المركز الإسلامي ، وقد أشار علينا شبابنا أن نرتدى الثوب العربي والطاقي حتى نشعر الناس أن هناك شيئاً جديداً عليهم سواء في الشوارع أو في المسجد فقد اعتاد الناس هنا على ارتداء القميص والبنطلون وما دام معنا في الغالب إخواننا وسركب سيارات خاصة فالخوف من التعرض لمتابع بسبب ذلك محدود .. ذهبنا مترجلين إلى الشارع الرئيسي لنستقل سيارة إلى المركز .. وكان لباسنا ملفتاً لنظر كثير من المارة .. وعندما وقفنا لنستقل سيارة أجرة .. وهى فى الغالب سيارة خاصة يقبل صاحبها توصيلنا إلى مكاننا مقابل مبلغاً من المال .. لفت نظر الإخوة أن بعض السائقين يرفع الأجرة التى يطلبها لتوصيلنا .. وتعجبوا من ذلك .. فهذا شيء لا يحدث معهم ثم أرجعوا هذا إلى رؤية السائقين للملابسنا وتقديرهم أننا من العرب حيث الأموال الطائلة .

بشيء من الفتور يشوبه الحذر استقبلنا المفتي وجلسنا معه فى حجرته التى بالمسجد ، واتفقنا على أن نعطي دورة صباحية تبدأ من التاسعة وتنتهى فى الثانية عشرة .. وكان المنهج كالتالى :

تفسير قرآن من الزلزلة إلى الناس ، وفقه الطهارة والصلاة ، وقراءة قرآن وتحفيظ ما تيسر ، وشرح عشرة أحاديث من الأربعين النووية ، وشرح نبذة عن الدعوة فى المرحلة المكية .

واختار الطيب شرح الأحاديث وتقاسم معى تحفيظ القرآن وقمت بحمد الله بتدريس الباقي .

كانت حجرة الدراسة متوسطة الحجم وهى التى تقابلك عند الدخول

من الباب الخارجى للمبنى القديم ، وبها دكك يجلس عليها الدارسون تقابلها طاولات قديمة ، وأمام كل ذلك سبورة متوسطة الحجم أمامها منضدة وثلاثة كراسى يجلس عليها المعلم والمترجم .. كان عدد الدارسين حوالى خمسة عشر دارساً ثمانية رجال والباقي نساء تتراوح أعمارهم من ٢٠ : ٦٠ عاماً .. وكانت عملية التدريس شاقة وتأخذ وقتاً طويلاً وتعتمد أساساً على إلقاء جملتين أو ثلاثة ثم ننتظر حتى يقوم الأخ المترجم بترجمتها ثم الاستمرار فى الشرح وهكذا وتواجهنا أحياناً بعض العقبات من عدم وضوح الفكرة للمترجم فأقوم بشرحها له ثم يعيد صياغتها ، وأحياناً يأتى الكلام حاوياً لتشبيه يصعب على المترجم إيصاله وتارة تتوه الفكرة من الذهن أثناء الترجمة أو مع تعليق أحد الحاضرين .

المهم أنه بدأت ثمار تلك الجلسات تتضح من الحرص الذى كنا نراه للدارسين □

المخيم

فى أثناء ذلك أخبرنا الإخوة بأن هناك معسكراً يبعد حوالى سبعين كيلو متراً عن المدينة تقيم فيه أكثر من عشرين أسرة ، وما يقرب من مائة فتاة وامرأة وعرض علينا الشباب الذهاب إلى هناك لإلقاء محاضرات .. تناقشت مع الطيب فى الموضوع لكنه رفض .. وقال كيف سنذهب إلى هناك ونحن هنا لنقيم الدورة ؟

قلت : ما المانع أن نذهب بعد انتهاء الدورة ؟

وقد كان فاتقنا مع صاحب سيارة لادا لتوصيلنا كل يوم مقابل حوالى ٥٠ دولاراً يومياً .. وكان المبلغ كبيراً ولكن الفائدة كانت أكبر والذى اعتدته هنا أن الناس يأخذون أكثر مما يعطون .. وإن كان البعض يعطى ولا يأخذ فنحن فى الغالب الذين كنا ننفق على كل ساكنى الشقة معنا وبالذات على شراء اللحوم وما أشبه ..

لقد كان الأمر شاقاً فما أن انتهى من الدورة حتى نسارع بالعودة إلى المنزل لنصلى الظهر بعد حوالى نصف ساعة من وصولنا ولم نكن ننتظر بالمسجد لأنه لا وقت لدينا لانتظار الصلاة بالمسجد ثم نعود للمنزل للغداء لننتقل بعدها للمخيم ولا سيما أننا نمثل أغلب أهل المسجد لذا فكنا نصلى فى البيت ولا أحتاج بالطبع إلى التأكيد على أنه لا توجد أى مساجد أخرى فى القرم - ذات التواجد المسلم - إلا هذا المسجد وبعد أن انتهى من الصلاة نجد الغداء قد أعد .. فدارا طباطخ ماهر فعلاً وهو يحب الطبخ .. وفى الحقيقة كان يكفيننا هذه المؤونة .. فما أن نحل بالمنزل حتى نشتم رائحة الطعام الشهى .. فقد ذهب عبد اللطيف ودارا فى ثانى أيام تواجدها بالمنزل

واشتروا لنا خروفاً صغيراً وذبحوه .. وقد تكلف ذلك عشرة دولارات فقط!! فما أرخصه .. وبدا ضمنا غداءنا لمدة أسبوع على الأقل .

وبعد أن انتهى من الغداء .. ننام قليلاً .. لمدة لا تزيد عن ساعة .. ثم نستيقظ على عجل لنجد السيارة بانتظارنا .. فنقطع المسافة في أكثر من ساعة لنصل على صلاة العصر فنصلى ثم نعطيهم محاضرة .. كنت أذهب أنا والطيب .. وعرضت عليه أن يحاضر فيهم فاعتذر .. واضطرت لإعطاء المحاضرات وحدي .. وكان يترجم لى عبد اللطيف وأحياناً طبيب عراقى متزوج من أوكرانية .. ومقيم منذ فترة طويلة بالقرم .

ما أسعدنى بتلك الغنيمة .. تجمع كبير فى مكان واحد .. لذا ربت عدة محاضرات رأيت فيها أهمية لهم فكانت الأولى عن القرآن والسنة والفرق بينهما ، والحديث الصحيح وأهمية اتباع السنة ، وفى الأسئلة كانت الردود على الأسئلة المتعلقة بالموضوع فتشعب الكلام عن الاختلاف بين العلماء ومبرراته .. والفرق بينه وبين الاختلاف بين الفرق .. وأذكر ذات مرة أن حدث لبس فى الترجمة فى قضية حساسة عن اختلاف العلماء واستعراض للمذاهب الفقهية فترجم الأخ عبد اللطيف خطأ فوقف ابنه الطيب العراقي وعدل له الكلمات الروسية .. وبالرغم من تمكن عبد اللطيف بالذات من اللغة إلا أن الطيب كان أكثر تمكناً .. إن عملية الترجمة عملية شاقة ومرهقة .

فى المحاضرة الثانية كان هناك مطراً خفيفاً فجلسنا بعد الصلاة فى قاعة الطعام ، وتحدثت عن الإيمان باليوم الآخر ومراحلہ .. وكانت بفضل الله محاضرة طيبة حتى إن امرأة كبيرة فى السن قالت : لم أسمع بهذا الكلام من قبل وكانت بادية التأثير ، وانبرت امرأة أخرى بعفوية فقالت مقترحة : إن هناك فتيات كثيرات كما ترون فلم لا تتزوجون منهن .. وضحكت : فكرة

لطيفة ولكن عواقبها وخيمة .. هكذا قلت ..
وتحدثت فى محاضرة أخرى عن المرأة المسلمة وتكريم الإسلام لها
وتعرضت خلالها لموضوع حجاب المرأة المسلمة .

دعانا رجل مسن إلى الشاى فى حجرته بالمخيم .. فأجبنا الدعوة وذهبنا
أنا والطيب ومهندس فلسطينى مقيم هنا ومتزوج من تشرية .. وهم
المتحدرون من التشار الغزاة وقد أسلموا وحسن إسلامهم ؛ فهم من أفضل
القوميات تمسكاً بالإسلام فى روسيا .. المهم ذهبنا إلى هناك وجلسنا معهم ..
سبحان الله كم هو عظيم ذلك الإسلام .. بالرغم من عدم معرفتنا للغة
تفاهم بها ؛ إلا أن المودة الصادقة تنقل الإحساس .. وحتى بالرغم من
تواضع حال مضيفنا - إذ قدم لنا الشاى فى برطمانات زجاجية - إلا أن
الكرم هو سماحة إسلامية فى قلوب المؤمنين الذين يجودون بما وجدوه ،
وظلت زوجته المعجوز ترحب بنا وهى تبسم وتسالنا الدعاء .

إن العرب لهم مكانة خاصة فى قلوب غيرهم من المسلمين فى ليتهم
يدركون أنهم ينظر إليهم على أنهم أبناء الصحابة الكرام فيكونون على
مستوى المسئولية فى هذا الأمر .. كم أتشهد حسرة إذا بلغنى ما قد يفعله
بعض العرب فى بلاد كالغرب أو تلك البلاد فالبلاء والمثل السيئ يطول
سمعة الإسلام .

لم تكن وحدنا فى المخيم .. بل كان لنا جزء منه .. وكان الروس يأتون
أيضاً إليه ليستجموا .. وقد أقاموا حفلاً موسيقياً على مقربة منا .. كما أن
هناك بار فى أول المخيم .. وكانت الحمامات قريبة منه .

وبالطبع لم تكن هناك مياه موصلة إليها .. فإذا أردت أن تقضى حاجتك
- أعزك الله - فإنه يجب عليك أن تحضر ماءً لتستخدمه وهذا مفهوم ..

ولكن غير المفهوم أن المراحيض غير ذات أبواب بمعنى أنها مغطاة بستارة من المشمع الذى اثنى من أطرافه إلى الداخل فأصبح يكشف عن اليمين والشمال ما يوازى نصف المراحيض ، ولما أبدت تعجباً من ذلك قالوا لقد غطوها من قريب .. إذ كانت قبل ذلك مكشوفة تماماً .. وكانت مختلطة !!
فالحمد لله الذى عافانا .

تمشيت مرة خلف المخيم .. فإذا بى أكتشف ممراً مائياً ضحلاً ووقفت أتأمل بعض الأسماك الصغيرة التى تسبح فى قاعه ، وبعض هواة الصيد الذين يمارسون هوايتهم .

إن التأمّل فى خلق الله والتنعّم بالنظر إلى الطبيعة يصفى النفس ويهدبها، وعزمت على أن أعبر إلى الضفة الأخرى منه فى وقت لاحق .. وقد كان ذلك فى اليوم التالى بعد الظهر .. فاخترت مكاناً ضحلاً وعبرت فوق الصخور إلى الضفة الثانية .. إنها غابة صغيرة وظللت أمشى لفترة .. فوجدت شخصاً من بعيد اقترب منى وبدأت أتبين ملامحه .. إنه رجل على ما يبدو .. شاب فى الثلاثينات .. يبدو لى أنه غريب الأطوار .. كلا إنه امرأة ترتدى زى أشبه بالرجال ولها بنيتهم كذلك .. كانت تنظر إلى بريبة فيها تحد .

فاكتفيت من نزهتى اللطيفة بما مر بى .. وعدت سريعاً أستحث خطاى ،
من يدرى فقد تكون من آكلى لحوم البشر ! □

حوارات وهموم

في جلستنا المسائية في شقة عبد اللطيف تدور حوارات مختلفة يكون أغلبها حول واقع الأمة .. وأتاحت لي تلك المحاورات اكتشاف بعض الأحداث والأحوال للأمة فمثلاً الأخ وائل الفلسطيني الذي يدرس الطب تخلف بضعة أيام عن زيارتنا فسألت عليه ، فقالوا : إنه متزوج من تترية - كما تعرف - وأنها وضعت له طفلاً هذا الأسبوع ولكن بعملية قيصرية وهو يعتنى بها بعد الولادة .. فجرنا الحديث إلى الزواج من أهل تلك البلاد فقلت : من العادات الإسلامية التي تبدو بديهية لنا - كقوامة الرجل في بيته مثلاً - وهذا شيء مستغرب في بلادهم .

قال صلاح : إنني في الحقيقة أتفق معك في ذلك ، ولكن دبرني فأنا كما تعلم مغترب هنا والفتن محيطية بي ، والحال كما تعلم في الزواج من مصر لا بد من مصاريف كثيرة وتذاكر بالطائرة .

فكرت في كلامه .. نعم .. الفتن هنا كثيرة .. والمصاريف إلى بلادنا كبيرة ولكن ..

دخل أحد الشباب وتعرفنا عليه اسمه محمد دندل من الأردن فشاركنا الحديث .. فقلت صحيح إن الزواج هنا ميسور ولكن لا تنسوا أن توابع ذلك الزواج كبيرة ..

قال دندل : أوافقك فإن الأمر يتطلب بعد ذلك الاستقرار في مكان ما إما في بلدك وإما في بلدها وهذا يسبب لأحدكما ضيقاً .

قال صلاح : وما المانع أن نتفق على ذلك ؟ .. فهم هنا يرحبون بالانتقال من البلد بسبب العوائق الاقتصادية .

قلت : ولكن إذا طال الفراق بدأت الأشواق .. وعموماً ليس هذا هو المحظور الوحيد .. عندك مثلاً - علاقتها - مع أهلك وخصوصاً الوالدة فالأم تريد أن تفرح بابنها .. وأن تكلم زوجها وتحادثها وهذا لا يتأتى مع اختلاف اللغة والعادات ، وكذلك الأمور الرسمية من الإقامة وتسجيل الأولاد .. ولا سيما في حالة حدوث خلاف أو شقاق لا قدر الله وهو أمر لا بد من التفكير فيه أيضاً .

بعد قليل دخل علينا وائل نفسه وبعد أن رحبنا به وباركنا له على رزق الله له بالولد .. جلس معنا وانضم تلقائياً لحديثنا الذي كان حامياً ، فقال : أنا والله الحمد مستريح مع زوجتي ، فأسررتها من أفضل الأسر هنا تمسكاً بالدين ، وهم كذلك يحترموننى ويحرصون على راحتى .. وهى كذلك بفضل الله مطيعة لى .. ولكن مع ذلك لو كان أتيح لى أن أتزوج من عربية - من فلسطين أو غيرها - لما اخترت الزواج من تترية .. قلت لم ؟ قال : اللغة مثلاً .. ليس هناك تمكن مشترك من اللغة بحيث نستطيع من الحديث معاً فى ما نود أن نتكلم فيه .. أريد أن أحدثها عن آمالى .. آلامى .. وما مر بى ولكن تقف اللغة حائلاً .. بالإضافة إلى أن الالتزام الدينى هنا لا يعدو أن يكون كحال عامة الناس فى بلاد العرب ؛ فبسبب قرب العهد بالشيوعية يصبح كل شىء جديداً عليهم ومستغرباً .. قال صلاح : وما الذى دفعك إلى الزواج إذن ؟ .. قال : إننى كما تعلمون أدرس الطب هنا ، وقد كان والدى يعمل فى الكويت .. وقد قضيت شطراً كبيراً من حياتى هناك .. ولكن لما حدثت حرب الخليج الثانية أخرجنا من الكويت عنوة .. ولم يكن مسموحاً لأبى أن يقيم فى أى من الدول المعتادة لإقامة الفلسطينيين .. تنهد ثم قال : لذا فقد دخلت أسرتى إلى العراق خلسة .. وليس لديهم إقامة رسمية فيها .. فأننا الآن ليس لدى جواز صالح لأسافر إليهم ولا أملك

القدرة على تجديده إذ ليس لدى رخصة إقامة فى أى من البلاد التى تعطى وثائق سفر لنا .. وهكذا كما ترون تخرج أسرتى لتقضى حوائجها خلسة حتى فى العراق خشية أن تمسك بهم الشرطة هناك أما أنا فلا أستطيع السف .. تأثرت وقلت : إذن فأنت لا تستطيع التحرك بسبب عدم امتلاكك لجواز سفر صالح ؟

قال : نعم فقد كنا نأخذ وثائق بسبب الإقامة فى الكويت .. قال عمر : ولهذا السبب تزوجت من هنا ؟ ..

قلت : سبحان الله .. إنها توابع الشقاق الذى خلفته حرب الخليج وحدث ولا حرج عن الحدود التى يضعونها بين الأمة .. فلا بد من الإقامات والتصريحات .

قال وائل : لو تعلمون يا إخوانى كيف أن المظلوم يشعر بالقهر لا سيما وهو لم يقصر ولم يذنب .. فأنا نشأت فى الكويت وأحبها بلا شك .. وإن كان فى بعض أهلها غلظة وتكبر .. إلا أننى ما زلت أحبها .. ومع ذلك أؤخذت أنا وأسرتى على أمور لم نفعلها ولم نوافق عليها ، لقد سعى والدى كثيراً .. وقال والله لم نتعاون مع الغزو ولم نرض به .. ومع ذلك لم يصدقه أحد لقد عشنا أياماً فى أثناء الغزو على أمل الانفراج وفى النهاية كان جزاؤنا الطرد .

المرارة تبدو واضحة من لفته .. نعم إنها مأساة أن يتشرد الإنسان من مكان نشأ فيه وليس بسبب تقصير أو جريمة ؛ وإنما بسبب مواقف سياسية ليس له يد فيها □

زيارة لصديق

دعانا (دندل) إلى بيته في سكن الطلاب وقال مشجعاً لنا إذا أقيمت يوم الجمعة فسوف أَدعو الطلاب هنا إلى الصلاة ليخطب أحدكما - أنا والطيب - وتكون فرصة للدعوة والالتقاء ببعض الطلاب العرب . ثم تفضلون بزيارتى لتناول الشاي في حجرتي رحبنا بالفكرة .. وذهبنا .. إنه سكن للطلاب كالمعتاد فيه نساء لا تعرف عملهن وفيه موظفون .. لفت نظري قبل دخولي إلى المبنى ثلاث نساء يجلسن على كومة رمل وقد بدا عليهن الإرهاق من عناء العمل فقد كان واضحاً من ملابسهن المتسخة بالأصباغ أنهن يعملن في المعمار وأنهن يجلسن لأخذ قسط من الراحة ، ولك أن تتخيل أن تعمل امرأة في هذه النوعية الشاقة من الأعمال وتعرض للمخاطر والجهد (تشعلق) إحداهن على جدار المنازل من الخارج وتعرض للمخاطر والجهد البدني العنيف وهو ما لا يتناسب مع قدراتها البدنية ، ولا مع أحاسيسها المرهفة . هززت رأسي شفقة وأسى : آه من أفكار البشر .. كم عانى منها غيرهم .. فأفسدت حياتهم وحملتهم مالا طاقة لهم به .

دخلنا إلى المسجد وهو ليس إلا حجرة كبيرة في المبنى الطلابي . فُرشت (مموكيت) من نوع رخيص .. والمعتاد أن تكون الأماكن مفروشة بسجاجيد قديمة أو تكون على البلاط فكان هذا احتفاء بالمسجد .

وقدمني (الطيب) لأخطب بهم فخطبت عن شرح حديث (لا نزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه)

وأشرت في الشرح إلى يوم القيامة وأهمية استعدادنا له .. وأحوال ما فيه ،
عرجت على أهمية العمل واستغلال الشاب لمرحلة شبابه فكانت بفضل الله
خطبة موفقة ، فلما انتهينا أحاط بي مجموعة من الشباب ليتعرفوا علينا
مازلت أذكر أحدهم واسمه عدى الكيلاني - فلسطيني - كان من غير هذا
المكان إذ جاء زائراً وظل يلح عليّ لأزورهم في مكانهم الذي يسمى
(خاركوف) فقلت له أعطني العنوان وإن تيسر الأمر زرناكم إن شاء الله .
دخلنا حجرة دندل ولم يكن ما يلفت النظر إلا أن هناك سخاناً لإعداد
الشاي من التراث في تلك البلاد ، وهو عبارة عن هيكل من (الألمونيوم)
يرتفع وكأنه قامة طفل صغير وبداخله مكان لتار هادئة وبه (صنبور) يفتح
عند الحاجة لأخذ الشاي .. إن (دندل) يستعد للسفر بعد أن انتهى من
الدراسة ولذلك فهو يعيش بروح المسافر وليس بروح المقيم ولما تكلم صلاح
كعادته عن موضوع الزواج قال دندل مداعباً : إن هناك فتيات رأهن في
المسجد محجبات فما رأيك في واحدة منهن انبرى صلاح يشرح أنه بالفعل
يفكر في ذلك .. وابتسمت وأنا أتابعه □

الأبواب المغلقة

الجمعيات الإسلامية تعمل بحذر شديد .. خوفاً من عصابات المافيا التي ما أن تشعر بوجودها حتى تسارع لابتزازها باعتبار أن هذه الجمعيات توزع أموالاً ، هذا بالإضافة إلى أن كل من يعرف بمكانها يسارع بادعاء الفقر أو الحاجة وقد يكون صادقاً ولكن أتى لهم أن يكفوا هؤلاء جميعاً هنا ، ما كان يدور بذهني وأنا أقف مع عمرو عبد اللطيف أمام الشقة التي اتخذتها جمعية خيرية سعودية اسمها (سار) وأظنها تابعة للمليونير السعودي الراجحي جزاه الله خيراً .. فقد كان باب الشقة مغلقاً وليس مكتوباً عليه أي عنوان وإنما زرنا المكان بناءً على اقتراحى للتعرف على الشباب هنا .. دخلنا كان بالشقة مجموعة من الشباب السودانيين الطيبين سرعان ما ألفناهم وألفونا ، وطلبوا منى أن أتكلم بموعظة أو درس ففعلت واصلينا معاً العشاء ثم تعشينا سوياً ، وعندما عدنا ليلاً وعلى أول شارعنا كانت هناك مجموعة من الشباب الروس طوال القامة بينهم فتاة أرادت أن تكلمنا فماذا قالت ..؟ قالت لعبد اللطيف بصوت أجش : أمعك سجائر ؟ قال : (نيت) أى لا بالروسية وانصرفنا من أمامهم .. يبدو أنهم سكارى .

وحكى لى عبد اللطيف كيف أن أحدهم عرض عليه أخته وظل يغريه ويقول إنها ذات خبرة (!) وستسعدكم كثيراً □

هموم كردية

جمعتنا الجلسة المسائية في ليلة من الليالي على العشاء .. وكان الشباب قد لاحظوا على دارا شيئاً من العجمة في اللسان كانت تبسدى في تذكيره بعض ما أنث أو تأنيثه بعد ما دُكّر .. لم أكن أحب منهم ذلك إذ كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض كلما أخطأ في التذكير أو التأنيث فنصحتهم بعدم جواز ذلك ، وحكى لنا دارا أنه كان تاجراً غنياً يتاجر في السيارات إلى أن حدث الاجتياح من الجيش العراقي بأوامر صدام .

تذكر ذلك في تأثر ، وقال والدموع تترقرق من عينيه : لقد كان شيئاً بشعاً فقد فررنا إلى الحدود التركية أنا وإخواني وأسرتي وأمي وجدتي ، وكانت الجدة شبه مقعدة فكان إذا حدث قصف خرجنا من السيارات التي نستقلها لتتوارى خلف ما يصلح لذلك من الصخور أو غيرها فكنا مع العجلة لا نستطيع أن ننقلها من مكانها فليس هناك وقت لذلك ، وكانت هي تشجعنا على أن نتركها في مكانها إذ إنها تدرك أن محاولة مساعدتها يجعلنا جميعاً هدفاً سهلاً ، فكانت تجلس في السيارة حتى ينتهي القصف لنعود إليها ... وذات مرة كان القصف شديداً واختبأنا وتركناها فلما عدنا إليها وجدناها قد ماتت .. ساد الصمت الحجرة . فقال أحدنا : هل أصيبت ؟ قال : لا .. "ماتت" ، قلت : يرحمها الله ما كان أحوجها في تلك اللحظات إلى من يكون بجوارها .

سألته ماذا فعل (صدام) في ذلك القصف ؟ أجابني بأسى : لقد كان يسمى هذه العمليات (الأنفال) إذ يقول للجنود إن تلك البلاد لكم .. اقتلوا الناس وخذوا الأموال وبالفعل قامت خمس عمليات رئيسية بدأت بمحديداً

فى ٨ / ٩ / ١٩٨٨ وأنا أتذكر اليوم فهو جزء من كيانى . أما تلك العمليات
فهى :

- (١) عملية (دربندى خان) بعمق ٥٠٠ كم الحدود الإيرانية ويطول ٦٠٠
كم بدأت برش كيماوى على الناس ثم هجوم الجنود بعد ذلك .
 - (٢) (قراداخ السليمانية) وبعث داخلى ٤٠٠ كم .
 - (٣) (كانى ماس زاخو) عمق ٣٥٠ كم بطول الجبهة ٥٠٠ كم .
 - (٤) منطقة (أحمد آوا) عمق ٢٠٠ كم وطول ٤٠٠ سم
 - (٥) وأخيراً منطقة (بالى سان) عمق ٢٠٠ كم داخل العراق نفسها .
- قلت : سبحان الله وكأنك تحفظ هذه الأرقام .

قال : نعم إنها مأساتنا .

قلت : وكم نجم عن ذلك من الدمار قال ليس هناك أرقاماً واضحة أو
مستقلة ولكن التقديرات المبدئية أن حوالى ٢٨٥ ألف شخص فقدوا
وأسروا فى تلك العمليات وتشرذم الباقون .. سكت دارا وتركنا نهياً
لأفكارنا، أما أنا فسرحت فى همومى .. إن هذه الرحلة بها الكثير من
الأحداث والوقائع والحديث عن آلام الأمة □

القرم وداعاً

انتهت مهمتنا فى القرم (أو الكرىم كما يطلق عليها الناس هنا) بانتهاء الدورة وانتهاء مخيم النساء فكان علينا بعد ذلك الرحيل إلى (موسكو) حتى نلحق ببقية المجموعة لنستكمل مهمتنا هناك .. فوجئت برغبة (الطيب) فى أن يحول وسيلة الانتقال إلى موسكو من الطائرة إلى القطار .. فقد قال لى : إنه لم يركب القطار فى حياته وأنه يرغب فى تجربته .. قلت له : المسافة بين القرم وموسكو كبيرة فلم لم تطلب ذلك فى المسافة الصغيرة التى بين القرم وكريف ؟ سكت واضطرت أسفاً .. أن أنزل على رغبته .. وحجز لنا وائل تذاكر السفر ثلاثة .. لى والطيب ودارا .. ويتندر (وائل) بما ذكرته له بأئعة التذاكر إلى أن قالت له الثلاثة من العرب سيركبون ؟ قال : نعم .. قالت وأعينهم سوداء وشعورهم كذلك قال : نعم .. قالت : يا للروعة !

تجولنا فى السوق قبل السفر إذا كان موعد السفر ليلاً .. البضائع أغلبها مستوردة .. ليس هناك شىء من إنتاج البلد إلا ما ندر .. ولفت نظرى أن دراجات الأطفال التى صنع البلد كانت غريبة وبدائية كمثل تلك التى يركبها بائعو الألبان فى مصر ، بيد أنها صغيرة الحجم ، وسألت عن سعرها فقال لى : إنه يوازى ٥٠ دولاراً .. مبلغ كبير .. مازال معى بضع ملايين من (الكوبونات) فاشتريت بعض الهدايا البسيطة .

وكان معى عمر الليبى فسألته : لم أتيت إلى هنا ؟ قال لقد سمعت وأنا فى ليبيا أن هناك دعوة طيبة وصحوة إسلامية كبيرة فى (طاجكستان) وقد أردت أن أذهب إلى هناك فمررت هنا من أجل التأشيرة ولكن لم أتمكن من الدخول إليها بسبب الحرب الدائرة هناك .

دخل علينا الليل سريعاً .. حانت لحظة الفراق لتلك المجموعة المتألفة ..
وجاءوا معنا جميعاً ليودعونا قبل السفر فقد كان القطار سينطلق في
منتصف الليل تقريباً محطة القطار - مرة ثانية - مرتع غريب لكل من ليس
له مأوى حتى الكلاب الضالة ، رائحة الخمر تنبعث من كل مكان ،
المسافرون يتحركون يميناً ويساراً .. أحدهم كان يقف مبرقاً عينيه فينا
ويشرب (الفودكا) .. شىء يشعرك بالاشمزاز والرغبة معاً أن يكون أكثر
من حولك من السكارى المتشردين ..

دخل القطار إلى المحطة .. وامتدت الأيدي مصافحة ومودعة .. ما أسرع
الفراق بعد الألفة واللقاء ولكن هذا حال الدنيا .. كم جلسنا سوياً ..
وتعارفنا وتآلفنا .. ولكن هل سنلتقى مرة أخرى .. الله أعلم كان عمر قد
أهدانى شريطاً لأناشيد إسلامية .. تذكرت فيه مقطعاً وأنا أودع شبابنا ..
(هل ترانا نلتقى أم أنها .. كانت اللقيا على أرض السراب ثم ولت وتلاشى
ظلها .. واستحالت ذكريات للعذاب) وكدت أبكى تأثراً □

إلى موسكو

آه أيتها المدينة المتعبة .. تأبين أن أذهب إليك مرتاحاً .. هائناً ما إن دخلنا إلى غرفة النوم بالقطار حتى أدركت ذلك .. كان علينا أن نغلق بابنا علينا حتى لا نسرق .. فإذا أغلقناه .. اشتد الحر بسبب النفس وضيق الحجره .. وتذكرت نظريتي في هذه البلاد التي خصصت فقط للبرد دون الحر ، كان علينا أن نمضي ليلتين ويوماً كاملاً في تلك الحجره ذات الأسره الأربعة على اليمين والشمال كما وصفتها أنفًا وبينهما طرقة صغيرة لا تكاد تكفى واقفًا فيها .. ولكن مع التعب ومرور الوقت اضطرت للنوم واستيقظت صباحًا بسبب سعال .. يأتيني أحيانًا من كتمان النفس .. فخرجت من الحجره لأقف في الطرقة .. وأردت أن أذهب إلى الحمام ، للقطار مشرفة كانت تجلس في حجرتها على مقدمة القاطرة تلعب الورق مع بعض زملائها .. وتوضأت ثم أيقظت شبابنا لنصلى .. لم نجد مكانًا لنصلى فيه إلا فسحة بين القاطرات وجدنا المسافرين يقفون فيها ليدخنوا السجائر هل هي مخصصة لذلك أم أن الغرف لا تصلح لضيقها .. الله أعلم .. فكنا نصلى في ذلك المكان .. وينظر إلينا الناس باستغراب .. ماذا نفعل ؟

مع أسفار الشمس واشتداد أشعتها أصبح الجلوس في الحجره لا يطاق بل الطرقة نفسها التي تربط بين حجرات القاطرة لا تطاق إذ إن أغلبها مغلق الزجاج وتذكرت (الفرن) الذي سبق أن ذكرته عند ركوبنا الطائرة من الشارقة .. بالطرقة شبابيك مغلقة ولها محابس المفترض أنها تفتح وحاولت ذلك فلم أستطع ، وأخيرًا أفلحت مع أحدها وقضيت عامة نهارى واقفًا أمامه أستنشق الهواء ولا أجرؤ على الجلوس في الحجره ، واقفًا أمامه أستنشق الهواء وأنظر إلى الطريق هناك مزارع كثيرة وكبيرة لنبات تباع

الشمس تكسو الأرض باللون الأخضر كسماط كبير ممتد موش بالأصفر
الكنارى اللون الزهرة ومع جمال الطبيعة يتذكر الإنسان ما يحب فطفت
أسرح بخيالى عبر أشواق لا تهدأ للأهل والوطن .

وقف القطار فى إحدى المحطات وجاءت البائعات المتجولات يعرضن
علينا بضائعهن من النافذة .. وأكثرها زجاجات فودكا أو سجائر أو لحم
محفوظ أشبه ما يسمونه (المرتديلا) .. (أسباسبيا) أى شكرًا بالروسية ظللت
أردها كلما عرض علىّ شيء من تلك البضائع .

تعرفت على شاب مغربى متزوج من روسية حسب ما قال لى لقد انتهى
من دراسته وهو ذاهب إلى موسكو ليأخذ شهادته ، وكمثل ما حدثنا الأخوة
فى (كييف) مازالت الجامعات ترتبط بموسكو ، والغريب أنه لما فشل فى
الحصول على التأشيرة غامر بقطع الطريق بدونها .. عرضتف عليه أن يصلى
معنا . فقال : إنه منقطع عن الصلاة بسبب تقصيره فيها . فظللت أحدثه عن
الصلاة وأهميتها واشترك معنا الطيب حتى توضحاً وصلى معنا .. وظل يومه
يمر علينا ويكلمنا .. ويصلى وقت الصلاة ، قلت للطيب : كم يخسر المسلم
بإقامته بين الكفار ..

كان الشاب يقيم فى غرفة القطار مع فتاة روسية جميلة وأمها وأشفقت
عليه من الفتنة ، وعرضت عليه أن يأتى ليقيم معنا فى حجرتنا فإن بها مكانًا
خاليًا ولكن استحيا ورفض .. بعد ساعات وقف القطار فى محطة رئيسية
وكان صاحبنا المغربى يتوقع أن يكون هناك تفتيش على الجوازات فيها ..
لذا فقد سارع بالاختفاء فى المحطة إلى أن تحرك القطار مرة أخرى ..
والحقيقة لقد رأيت من نافذة القطار وهو يكلم الفتاة الروسية التى تشاركه
الغرفة وعلى شفثيه ابتسامة شهوة .. قلت لنفسى وهذه إحدى مصائب
الغربة .. فتن فى كل مكان لم يمر أى من مسئولى التفتيش حتى تحرك
القطار .. ولكنهم بعد تحركه مر اثنان من الجنود الروس ، طرقا الباب علينا

فى الحجره وكنا ناكل الجبن وجبتنا الوحيدة اثناء السفر فتكلما مع دارا لحظات وطلبا أن يريهما الجوازات .. فأراهما جوازه فقط وهممت أن أخرج جوازى لكنهم اکتفوا بذلك ومشوا .. أشفقت على المغربى الذى لا يحمل تأشيرة دخول .. صحيح أنه لم ينظر الموظفان إلى تأشيرتنا إلا أنه قد يطالب بذلك .. وشعرت بقلق عليه إذ لم يظهر لفترة لكنه مر علينا قبل العشاء .. وصلينا جمعا وقصرا كعادتنا ، ثم وقفت قليلا فى النافذة وكأنى أختزن الهواء النقى . قبل أن أنام فى هذا القرن الصغير .

مع الفجر استيقظت وصلينا بسرعة فقد كان القطار على مقربة من موسكو - نزلنا ومعنا حوائجنا .. وحاول دارا أن يؤجر لنا حمالا لنخرج أمتعتنا إلى خارج المحطة .. ولكنه وجد أنهم يطالبونه بأسعار عجيبة تصل إلى ٢٠ دولارا لمجرد إيصالها من داخل المحطة إلى خارجها رفضنا ذلك الابتزاز وتعاوننا سويا على نقلها خارج المحطة . لقد كانت ثقيلة ولكن بأبى المرء أن يعطى إلا ما أحس بقيمته لديه ، وإذا كان إخراج الأمتعة يتكلف ما ذكرته فإن استئجار سيارة يتكلف أضعاف ذلك بالطبع .. وهذا ما أخبرنا به (دارا) عندما ذهب ليبحث عن سيارة وإذا كنا رفضنا الابتزاز فى نقل الأمتعة فإنه من الصعب ألا نقبل بذلك فى مسألة السيارة ؛ فمهما كان المكان قريبا إلا أن السير بتلك الأمتعة الثقيلة هو ضرب من العذاب بلا شك، لكن دارا خفف الأمر بأن ابتعد قليلا عن المحطة واستوقف سيارة وتفاوض مع راكبها على مبلغ أقل من نصف ما طلبه السائقون على باب المحطة .. ولم يكن هناك ممرآ نعرفه يصل بين طرف المحطة الذى نزلنا إليه والطرف الآخر الذى به باب الخروج فاضطررنا لحمل الأمتعة عبر القضبان! ما إن خرجنا بالسيارة حتى تذكرت شيئا هاما .. ها نحن داخل موسكو.. ولكن دون أن نمر على أى جوازات لقد كانت المحطة بلا جوازات.. لقد دخلنا موسكو دون أى أختام للدخول ! □

بلد الغربان .. والكلاب

أول شيء يلفت النظر في (موسكو) هو انتشار الغربان بأعداد كبيرة
كانتشار العصافير في غيرها من البلاد .. كما أن للكلاب هنا شأنًا إذ يعتبر
الناس هنا تربيتهم هواية لطيفة حتى لقد كنت أسأل نفسي هل عدد الغربان
والكلاب هنا أكثر من الناس .

الشوارع عريضة والأبنية متشابهة والمدينة تذكرني بالقاهرة في ازدحامها
إلا أن شوارعها أعرض وحدائقها أكثر (بوتانيتشكى ساد) هو اسم المنطقة
التي يقع فيها الفندق الذي أقمنا فيه مع بقية أفراد المجموعة في ضيافة هيئة
الإغاثة الإسلامية عندما دخلنا إلى الفندق .. كان الوقت مبكرًا فلم نشأ أن
نوقف أحدًا لذا فقد نمنا في مدخل للاستراحة كان معدًا للصلاة .. ولم
أشعر إلا بيد الأخ محمد إبراهيم وهو يوقظني بعد ما رأيته .. رحب بي
ورحبت به ما أجمل أن تلتقي بمن تألفهم في بلاد الغربية .

ودخلت إلى غرفة محمد وجلسنا نتجاذب الحديث سويًا :

- كيف حالك يا محمد سلامات يا رجل ، كأنى لم ألتق بك منذ دهر .

- وأنا كذلك كيف حال أهلك في الاسكندرية .

- الحمد لله .. والله لم أتصل بهم منذ فترة فالحال كما تعلم وليس

يسيرًا أن تجد أداة للاتصال .

- تنهد في حسرة وقال : وأنا كذلك لم أتصل بهم منذ فترة .. ثم ابتسم

وأضاف أليس لطيفًا أن أقابلك هنا فمجموعتنا كانت ستتوجه إلى الدول
الغربية والشمالية من الاتحاد السابق ونحن هنا لترتب الدورات مع الإدارة
قبل انطلاقنا ، وبالمناسبة فبقية مجموعتك لا تزال هنا وهم يقيمون دورة في

إحدى المدارس المستأجرة واليوم هو يوم اللقاء الختامى فما رأيك أن نذهب إليهم .

قلت : لا مانع ولكن دعنى آخذ قسطاً من الراحة قبل الذهاب .. قال ليس قبل أن نفطر .

ضحكت وقلت : ما هذا الكرم يا محمد ليس من عادتك ، قال : وسأحضر أفضل ما لدى .. الجبن ، قلت : جبن ثانى ، وارتفعت ضحكاتنا ، وبعد أن أفطرنا ذهبنا والتقيننا ببقية مجموعاتنا وتعانقنا فإننا لم نلتق منذ دهر . كانت المجموعة التى يحاضرون فيها أغلبها من الشباب ومن هم دونهم فى السن وكان يترجم لهم أحد الأخوة التتر ، وكان معهم رجل مسن ولكنه مجتهد فى إجاباته وتلمح فيه حرصاً على الاستفادة ، وعلمت من الإخوة أنه يقيم بطريقة غير رسمية فى هذه البلد ؛ بسبب الحرب الدائرة فى بلدهم الأصلية (طاجكستان) ، ومثله فى موسكو كثيرون .

اختتم الإخوة دورتهم بتوزيع شهادات تقدير المشاركة فيها ثم تغدينا فى نفس المكان وأخيراً طعمنا أرزاً ولحماً وانصرفنا بعد ذلك .. عندما عدنا لاحظت غياب محمد إبراهيم عنا وسألت عليه (محمود) ، فقال : هو لايعرف المكان جيداً ولكنه عموماً مكافح وكثيراً ما يحب الاكتشاف والمغامرة ولعله يتمشى قليلاً وسيعود .. ولم يحدث وبدأ القلق يراودنى أين ذهب الفتى ؟ إننى وبواقع جبرته لى بالاسكندرية أشعر أننى مسئول عنه ، ذهبت إلى أخ سعودى من مسئولى الهيئة فى حجرتة بالفندق وقد قاربت الشمس على المغيب على أنه أحد المسئولين فى الهيئة الإسلامية لذا فقد توجهنا إليه عندما دخلنا وسلمنا عليه .

- وعليكم السلام مرحباً بالشباب

- قلت : الأخ محمد إبراهيم لم يعد إلى الآن والشمس قاربت الغروب

فما راعنى إلا لامبالاته حيث قال : لا فائدة الآن من البحث عنه فالليل داخل .. ومستحيل أن نخرج لنبحث عنه لأن ذلك خطر علينا ولكن انتظروا إلى الصباح فإن لم يحضر أبلغنا الشرطة .

ولم أستطع النوم ليلتها إلا قليلاً فقد كان الأمر معلقاً .. أين ذهب وطفقت أتذكر عذابه وغرته عن هذه البلاد وعجزى عن الخروج للبحث عنه .. تراه قد حُطف أم حدث له سوء .. وظللت أدعو الله أن يفرج كربته .. حتى غلبنى النوم ومع إشراق الشمس وجدته يدق بابى : أين كنت (صحتها فى وجهه) .. لقد كنت أخشى عليك الهلاك .. قال : لقد عن لى أن أمشى قليلاً ثم أدرككم فى السكن ولكنى ضللت الطريق ثم بينما كنت أمشى إذ وجدت زميلاً لى كان فى الكلية ويعمل هنا وقد أصر على أن أزوره .. قلت : ولم لم تتصل بنا وتركنا للمللق قال : آسف جداً فالأخ لم يكن لديه تليفوناً فى الشقة وقد خاف أن يتركنى أمشى وحدى ليلاً فاستمهلنى حتى الصباح .. قلت : أى بلد تلك التى يخشى فيها المرء أن يخرج من منزله مساءً □

عماد مرة أخرى

التقيت بالأخ عماد الذى صحبنا فى أول الرحلة فى كيف .. ودعانا إلى تناول الغداء فى منزل صديق له .. ورحبنا .. وذهبنا إلى المنزل باستخدام (الأتوبيس الكهربائى) الذى يسمونه (التربليوس) .. لاحظت أنه ليس به عامل للتذاكر وإنما توجد ماكينة معلقة فى أحد الأعمدة يضع فيها الراكب تذكرة من شريط تذاكر يكون قد اشتراه سلفاً من المحطة ليضفط عليه فى الماكينة اليدوية لتختم بثقب .. وقد يمر أحياناً أحد المفتشين لينظر إلى التذاكر ويغرم من لم يختم تذكرته لقد كانت فكرة حضارية تنم عن الشعور بالمسئولية وبالرغم من ضيق ذات اليد لدى الكثير من الروس إلا أنى رأيت الكثير من الناس يستخدمون الماكينة كما رأيت غيرهم كثيرون أيضاً لا يستخدمونها :

سألنى عماد : ما تقول فيما يفعله البعض إذ يركبون ولا يستخدمون الماكينة ، ويعتمدون على وجود ثقب قديم بإحدى التذاكر يبرزونه عند الطلب .

علقت قائلاً : فكرة شيطانية ، ثم ابتسمت قائلاً : وأظنها انبعثت من عقليات قوم أعرفهم ..

ثم أضفت : وهذا لا يحق .. أو ليسوا قد ركبوا السيارة واستخدموها ؟ فلا بد أن يدفعوا ثمن ذلك ولو كان إلى الكفار ثم إنهم بذلك قد يسيئون إلى الإسلام إذا اكتشف الناس ذلك ، وهى مسئولية أخرى عليهم .
فى الطريق كان منظرنا ملفتاً فنحن مجموعة من العرب لونا أسمر بالنسبة لغيرنا من الروس ذوى الشعور الصفراء .. وكان معنا شاب

صومالى تعرفنا عليه بلونه المميز وملابسه التى تشبه ملابس الباكستانيين
واسمه مهدى . ما إن رأنا أحد الجنود داخل سيارة الشرطة حتى اختفى من
مكانه واقفاً وظل يتكلم فى جهاز لاسلكى فى يده وكان عماد يستمع إليه
وهو يكلم الطرف الآخر ونقل إلينا ما حدث فإن الشرطى ما إن رأنا حتى
شك فى كوننا لا نحمل إقامات ! وربما أننا مطلوبون كذلك !
أما الطرف الآخر فقال له : كم عددهم ؟ فقال خمسة . قال : إذن دعهم
فقد يؤذوك !

ضحكنا من فعله ومن الرد الذى تلقاه ثم علقنا قائلاً : لقد كان فيما
حدث إشارة إلى طريقة تفكيرهم فيما يتعلق بالعرب ..
أما الشقة التى دخلنا إليها فقد كانت صغيرة مثل الشقة التى كنا نسكنها
فى الهرم .. وبرغم الصغر فإنهم يحاولون الاستفادة من كل مساحة بالشقة .
قمنا بإعداد الطعام بأنفسنا .. وكان سمكاً قطعناه وقليناه بالزيت
وطهيت لهم أرزاً بالبصل على الطريقة السكندرية التى يسمونها (صيادية)
فكان الطعام لذيذاً .

على أحد الحوائط لمحنا صورة كبيرة لشاب فى الحجرة فسأله عماد لم
تعلقون الصور بهذا الشكل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
تعليق الصور .. فقال فى أسى : هنا كان صديقنا من لبنان وعاد إلى هناك
والتحق بقوة لمقاومة اليهود ثم استشهد فى إحدى العمليات قلت : رحمه
الله تعالى .. قال لقد كان كله أمل وحيوية وقد أحزننا كثيراً نبأ وفاته ..
وبالمناسبة فقد كان شيعياً .. قلت : إذن فقد كان فى حزب الله اللبنانى
مثلاً؟ قال : نعم .. فجرنا ذلك إلى الحديث عن الفرق بين السنة
والروافض .. فقلت إن مصيبة الروافض فى كونهم ينظرون إلى أهل السنة
على كونهم أعداء مع أنهم الذين طرأوا على الأمة بفكرهم .

قال مهدي : بل إنهم ينظرون إلى الصحابة نظرة سوء .. قلت هذا هو الأصل ، وكما قال العلماء لو سألت اليهود والنصارى من خير ملتكم لقالوا أصحاب موسى وعيسى ولو سألتهم من شر ملتكم لقالوا أصحاب محمد ﷺ .

قال محمود : نعم لقد امتدت إليهم يد السوء مستغلة محبتهم لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم للذس في أصحاب النبي وادعاء الفرقة .
قال محمد إبراهيم : كما قال العلماء لقد أرادوا إن يطعنوا في الدين فطعنوا في حملته وهم الصحابة .

قلت : نعم فلو كان الصحابة وهم الذين تربوا على يد رسول الله هم الذين قد دار بينهم الخلاف ومنعوا الحق - المدعى - لعلى رضى الله عنه فالطعن في الدين الذى حملوه يسير ولذا فمن غير المستغرب سماع الدعاوى التى تنتشر فيهم والعياذ بالله كمثل زعمهم بأن القرآن محرف أو امتدت له يد الحذف والعياذ بالله مخالفين بذلك نصاً قرآنياً صريحاً ، إذ يقول الله تعالى (إننا نحن الذكر وإننا له لحافظون) سورة الحجر .

قال عماد : إذن فصاحبنا هذا ليس شهيداً ؟

قلت : ولم لا يكون شهيداً ؟ إننا نرجو له الشهادة فالأصل فى عقيدتنا هو العذر بالجهل لاسيما لمن نشأ فى مكان لم يعرف عنه إلا هذا الفكر وكما قال الشافعى لا يكفرون بعمومهم وإنما يكفر بعضهم ببعض المقالات . هذا بالطبع إذا سلمنا أن صاحبك لم يكن مطلعاً على شبهات الرافضة المكتوبة فى كتبهم الأصلية ومعتقداً لهما فيكون حكمه كعموم المسلمين الذين هم على الإسلام بعمومهم □

مترو موسكو

شبكة مترو الأنفاق هنا متقدمة جداً.. فبإمكانك أن تذهب إلى ضواحي موسكو المترامية الأطراف عن طريقها .. المحطات ينزل إليها عن طريق سلم متحرك قد يطول أو يقصر بسبب ارتفاع المنطقة عن مستوى سير القطار ، وقد يستغرق تحرك السلم ثلاث أو أربع دقائق وهي فترة طويلة نوعاً ما للوصول إلى مكان الركوب وهناك (موضة) عند الشباب والفتيات من أدعياء التحاب والصدافة أن يقف أحدهما على درجة قبل الآخر فى السلم ليقف بذلك فى مواجهة الطرف الآخر فيتبادلان الحديث والقبلات والأحضان ! أمام الناس (وإذا لم تستح فافعل ما شئت).

ذهبنا بالمترو إلى منطقة نائية لتأكل هناك حيث بها مطعمًا إسلاميًا يقدم اللحم الحلال والذي لا يتوفر إلا نادراً .

ولما كان غالب طعامنا الخبز والبيض والجبن فإننا بلا شك اشتقنا إلى أن نأكل شيئاً آخر مع مرور الأيام .

إن المطعم لا يقدم الخمر ولكنهم لا يمنعون من اصطحابها معه .. لذا فقد رأينا بعض الرواد يشربون خمرًا كانوا قد اصطحبوها سلفًا ، لم يعجبني ما يقدمه المطعم من طعام .. كانت فيه نكهات لم أستعذبها وقد دفعنا مبلغًا كبيرًا يوازي عشرة دولارات لكل شخص .

قال عماد : لقد كان بالمطعم شريكين قتل أحدهما من قريب .

قلنا لماذا؟ قال لقد رفض إعطاء رجال المافيا الأتاوات التى يطلبونها

فقتلوه .

قلت : ما هذا الإجرام؟ قال : وهذا حالهم دائماً ، وكما ذكرت لك آنفًا

فهم فئة ورثت خبرات جهاز المخابرات الـ K G B الكى جى بى ، ولم نجد نفسها عملاً وأرادت الثراء السريع فوجدت ضالتها فى فرض الأتاوات على المستضعفين .

فى طريقنا إلى المترو كان هناك نصب لحجر أساس قرأ عماد عليه أنهم بصدد إنشاء مركز إسلامى وقال مهدي : إن هناك رجل أعمال من أصل يهودى هو الذى تبرع بقطعة الأرض ولكن الناس ينظرون إليه بريية نظراً لأنهم يشكون فى اعتناقه للإسلام وعدنا إلى المطعم مرة أخرى . فإذا بالنصب وقد أوسع تكسيراً وهدماً وألقى عليه القمامة وكتبت عليه عبارات الرفض والشجب لإقامة مركز إسلامى عليه ، ويبدو أن أحد المتعصبين فعل ذلك رفضاً منه للإسلام .

وعند عودتنا تلقفنى أحد الأشخاص وله ملامح أفريقية ونفوح منه رائحة الخمر ، وظل يحكى لى أنه بحاجة إلى مال وأنه قد طرد من منزله وقد شق علىّ أن لا أعطيه شيئاً ولكن كان معنا أخ مغربى ظل يكفكفنى ، وقال له : تعال إلينا فى مقر المركز حتى نستعرض حالتك ثم نعطيك . على أثرها قال : لكن صاحب المنزل يطلب الآن مالاً وقد طردنى من منزلى . قال: تعالى وسنعطيك فى أسرع فرصة .. أخذ العنوان بغير اهتمام ثم انصرف وأردف صديقنا : لو كانت حاجته ملححة فسيأتى . قلت : ولعله يكون صادقاً . قال : إنه يأتى إلينا كل يوم عشرات الناس وبعضهم يكون صادقاً والبعض يكون كاذباً ، وحتى من نعرف صدقه قد لا نستطيع أن نعطيه شيئاً ؛ فليس لدينا القدرة لإعطاء الجميع .. ولم يأت الرجل إلى المركز □

عند أسوار الكرملين

الكرملين ذلك المبنى الأحمر الكبير الشهير بأبراجه الكثيرة والمتميزة كان مقرًا للحكم الشيوعي ورمزًا له بالرغم من أنه بنى قبل دخول الشيوعية .. الآن أصبح مزارًا لكل راغب فى مشاهدته أو التسوق من الأسواق التى أصبحت تحيط به .

منير أخذ يلتقط صورًا للكرملين من بعيد والناس حوله تبيع وتشتري لقد كانت مفارقة مشيرة للرثاء والضحك فالكرملين رمز الشيوعية ورمز التصلب الروسى الأحمر صار مرتعًا للبائعين لكل صنف من الفطائر والبيتزا إلى الأحذية والملابس مرورًا بالساعات ولعب الأطفال .

وبجوار الكرملين يوجد مبنى أشبه بهرم بُنيت قمته ، وغطى برخام عنابى اللون يرقد فيه (لينين) مؤسس الدولة .. لقد كان أحقر من أن ندخل لنراه .

هذه البلد خالية الآن من أى أثر بشىء من صناعتها تقريبًا .. ففى كل مكان أحل به كنت أبحث عن راديو يتميز بحساسية عالية قد اشتهرت بصناعته روسيا ولم أجده أبدًا ، وأردت أن أشتري تليفونًا له شاشة تظهر رقم المتصل وتخزن مجموعة من أرقام المتصلين سلفًا فلم أجده أيضًا ، أما اليوم فقد عثرت على شىء أنتج فى البلد .. أخيرًا .. إنها ساعات ذات شكل عريق ولها كفاءة مشهورة تباع فى الأسواق حول الكرملين فسارعت بشراء إحداها تذكيرًا لزوجتى □

عند محطة القطار

كثير من محطات القطار يكون بها أنفاق صغيرة تحتها لتصل بين طرفي المحطة .. وهذه الأنفاق تكون مرتعاً للحياة من نوع غريب ففيها الشحاذون وجامعو التبرعات بالإضافة لبائعات الورد وبائعو الجرائد وغيرهم .

أما الشحاذون فهم طائفة غريبة من البشر فبإمكانك مثلاً أن ترى رجلاً عسكرياً يرتدى كامل ملبسه ونياشينه والتي علاها الصدا يقف جانباً ويضع بجواره - بكل اعتداد - مندبلاً أو (كوزاً) يجمع فيه مالقى إليه من الروبلات كما يوجد كذلك طائفة (العجر) المنتشرون في كثير من البلاد ولهم نفس الصفات تقريباً تجد أطفالهم يجرون خلفك طلباً للصدقة وكثيراً ما كنت أعطيهم شفقة منى على طفولتهم وما راعنى إلا أنهم يرسمون الصليب على صدورهم ويتمتمون ببعض الكلمات التي يبدو أنها شكر ودعاء بعد أن يلتقطوا الصدقة ، والمعجيب أننا قد وجدنا رهباناً أيضاً يقفون في هذه الأماكن لجمع التبرعات للكنايس .

أما المجلات والجرائد فكثيرة ولا يوجد تقريباً جريدة أو مجلة مما رأيت ناطقة بلغة غير الروسية .. ولكن اللافت للنظر وجود جرائد ومجلات جنسية كثيرة يمثل الانتشار الذي وصفته في أنفاقها .

أثناء مروري ذهاباً وإياباً على محطة المترو في (بوتانتشني ساد) كان يجلس في الطريق بائع خبز وكان يكتب سعر الخبز المميز بخط كبير على الصندوق ، وتعجبت أنه قد رفع السعر من ٥٠٠ روبل إلى ٥٥٠ إلى ٦٠٠ في أسبوع واحد فقط ! بل إن سعر الروبل نفسه تغير من ألفين إلى ألفين ومائتين روبلاً لكل دولار في أثناء فترة إقامتنا القصيرة .

شئ مثير للشفقة أن تجد المجتمع وقد انقسم إلى قسمين : قسم يبدو من مظهره الثراء ، وقسم آخر يعاني الفقر ، والسخيف فى الأمر أن القسم الفقير هو فى الأغلب من المعجزة والعجزة . وإن كان العزاء الوحيد فى أن هؤلاء حاملو لواء الشيوعية فى شبابهم وعزها ، وهم بالطبع لم يتمكنوا من مسابرة الوضع المتغير السريع التقلب بعد سقوط الشيوعية .. لذا تجد العجزة يبذلون جهوداً ساذجة لتحسين الأوضاع المادية لهم فليس مستغرباً أن تمر فى طريقك إلى المحطات بين صفين طويلين عن اليمين والشمال من البائعين يتكون أغلبه من نسوة وفتيات وبعض الرجال وكلهم وقوف وكل منهم يبيع شيئاً واحداً .. وواحداً فقط فى الأغلب فهناك من تبيع خمس حبات من الطماطم مثلاً أو علبه سجائر واحدة أو معها قطعة ملابس واحدة فقط فإذا باعتها انصرفت .

وحدث ذات مرة أنى كنت أمر مع الإخوة بين هذا الصف المعتاد وكان الصف طويلاً والجميع يشيرون إليك ببضائعهم .. وفجأة حدث ارتباك وهمس وذهلنا من أن الصفيين قد تلاشيا وكأنه لم يكن لهما وجود ، وتحول البائعون جميعاً إلى جمهور يسير فى طريقه والذي حدث أنه قد مر أحد الجنود فى الطرف البعيد من الطريق فلمحه البعض فسرى الخبر بينهم سريعاً فأسرعوا جميعاً بالاختفاء .. وفهمت عندئذ لماذا كانوا يقفون جميعاً مع أن الجلوس أسير لهم . سبحان الله حتى تحسين الدخل بطريقة مشروعة يعد شيئاً محظوراً فمن أين سيواجه الناس هذا التغير فى حياتهم !

إذا كنت فى طريق واضطرتت - أعزك الله - لدخول دورة المياه فإنك ستجد عجباً .. فلا بد من دفع الفلوس أولاً ثم تدخل لتأخذ حاجتك من الورق من إحدى العائلات ثم تدخل إلى مكان الحمامات والذي تفاجأ بأن أبوابه قصيرة كمثلى أبواب (اسطبلات الخيل) أو (أبواب البارات) التى كنا

نراها فى الأفلام الأمريكية القديمة قبل أن يتوب الله علينا ... المهم أنك ستصعد درجتين لسلم لتستدير فتقف فى مواجهة الجمهور الواقفين بانتظار دورهم وبإمكانك من هذا المكان المرتفع أن تلقى عليهم خطبة إن شئت فإذا حانت منك التفاتة إلى اليمين أو إلى اليسار فستجد زملاءك الذين يمارسون نفس العمل من خلال السور القصير الذى يفصل بين كل حمام وما يجاوره، أما إذا أردت أن تمارس ما دخلت من أجله فستضطر لرفع ملابسك أمام الجمهور الواقفين قبل أن تختفى خلف الباب القصير ! □

صلاة الجمعة

ذهبنا إلى صلاة الجمعة في مركز إسلامي قيل أن رجل أعمال سوداني أقامه داخل أحد المباني في قلب موسكو وكانت الخطبة باللغة العربية والخطيب سوري ، وكالعادة تنتشر المعلومات التي يكثر مثلها في هذه البلاد مشككة في نوايا الناس فمثلاً يقال إن رجل الأعمال الذي أنشأ المركز يقوم بعمليات تجارة في السلاح والمخدرات وإنه يستخدم مثل هذه الأعمال لغسيل أمواله ، أما الخطيب فيقال عنه أيضاً إنه يتبع المخابرات السورية ، بل إن البعض ممن يجلسون معه قال إنه صرح بذلك ، المهم أن هذا ما ينتشر فهل يا ترى ذلك مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يأس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه لم ييأس أن يحرش بين المصلين ؟! والذي لاحظته في الخطبة أن صاحبها يحمل فكراً مشوشاً وقد حكى في الخطبة عن قصص عجيبة رجلين أحدهما يهودي والآخر مسلم وكانا شريكين وكان المسلم يدعو اليهودي للإسلام ثم اتفقا في النهاية على أن من مات قبل الآخر أن يأتي في المنام ليخبر صاحبه أيهما على الحق وظللت أتابع وأنا أتميز غيظاً هذا الكلام الفارغ الذي ليس له سند ولا معنى وفي النهاية مات اليهودي وأخبره في المنام أنه ليس على الحق ولكن الله رحمه ! وكفانا مؤنة الرد عليه أحد المصلين الذي قام وسلم على الإمام واستأذن في كلمة وتكلم وأطال حتى استغرق حديثه نحواً من وقت الخطبة فتكلم عن الالتزام بالإسلام وأهميته وأن الإسلام هو الحق وحده - وكان ذلك إشارة إلى ما أثير في الخطبة ثم عرج إلى الحديث عن زيادة الإيمان وغير ذلك من النصائح التي خففت بعض ما في الخطبة من أخطاء ، وهكذا باستطاعة الداعية ودون أن يتعرض للناس أن يصحح أخطاءهم وأن يوصل دعوته □

المسجد التاريخي

هكذا يطلقون على المسجد الرسمي الموجود في أطراف موسكو والذي يصلى فيه المفتي الرسمي ومساعدوه وما يقال في كل مكان هنا يقال أيضاً على المفتي فقد قيل أنه عميل للمخابرات الروسية - وقد يكون كذلك - أما ما يبدو أنه يحدث فعلاً أنهم يأخذون - أو يفرضون - رسوماً على الأعمال الشرعية التي يؤديونها للناس في المسجد حتى إنه يقال أنهم يأخذون عشرة آلاف روبل نظير الصلاة على الميت ! ويتقاضون أكثر من ذلك لعقد القرآن .

ذهبنا وصلينا الجمعة التي تليها في المسجد التاريخي هذا وكانت الخطبة في بداياتها باللغة العربية ثم تكلم بعد ذلك بالفارسية ، وكان الخطيب هو مساعد المفتي يرتدى عباءة سوداء فوق بدلة كاملة وعلى رأسه عمامة خضراء . أما الخطبة فكانت جيدة ، ترضى فيها عن الصحابة وحث الناس على البر والخير .. بعد انتهاء الخطبة - والتي أطالها الكلام بلغتين - التقينا مع مدير مؤسسة الإبراهيم الخيرية والتي تتخذ من المسجد التاريخي مقراً لعملها وسلمنا عليه ثم استأذن منصرفاً في سيارة أمريكية فارهة .

□ ملحق بالمسجد محل يبيع اللحوم الحلال ويشتري منه أكثر المصلين

البحث عن زوجة

عنَّ لمحمد إبراهيم أن يبحث عن زوجة في هذه البلاد وعبثًا حاولت إثناءه عن تلك الفكرة فقد تضخمت حتى صارت هاجسًا عنده كلما ذهب إلى مكان يظل يسأل ويبحث ويكلم العرب الموجودين ليرشحوه له زوجة ، وذات مرة رغبت أن أتصل بالأهل وكان الوقت قبل المغرب وبالرغم من تحذير الإخوة لنا من الخروج في المساء إلا أنني قلت لعلنا نذهب فنتصل ثم نعود قبل حلول المساء وبما أننا في هذه البلاد تغرب الشمس قرب العاشرة مساءً ؛ فقد خرجنا نحو الثامنة وأقول خرجنا لأنى شجعت محمد إبراهيم على ذلك لينصطحبني ففعل ... وصف لنا الزملاء مكان الاتصال أنه في (فيدان خا) ويبدو أن هذا الاسم معناه الحديقة الكبيرة أو المنتزه لأن في تلك المحطة حديقة كثيفة الزرع وارفة الظلال يؤمها كثير من الناس وتحلق جماعات من الموسيقيين ، الذين يروجون لبعض الأشرطة التي ينتجونها ليقوموا بعزف ألحانها تشجيعًا للناس على الشراء ، ومشينا إلى مكان به أجهزة للهاتف لكن تبين لنا أنها للاتصالات الداخلية طفنا بالمنطقة فلم نجد من نحدثه إلا بعض عابري سبيل لم يكونوا يعرفون الإنجليزية .. كانت الشمس قد أذنت بالغروب وبدأت أتذكر تحذيرات الشباب ولكن ماذا نفعل فسألنا في كشك لبيع الخردوات عن مكان للاتصال فطلت فتاة بداخله تستجمع ما عندها من الكلمات الإنجليزية لتصف لنا مركز الاتصالات الذي يقع في آخر الشارع على اليمين من عمارة مرتفعة ، ومشينا لفترة طويلة كانت كافية ليحل الظلام التام بنا إنها موسكو في الليل .. ترى ماذا سيحدث لنا .. أخذنا نسير .. ثم قلت لمحمد : لقد طالت المسافة ما رأيك

فى أن نعود؟ .. قال : لقد حل بنا الليل وقضى الأمر ؛ فلننجز ما خرجنا من أجله ولنعود بعد ذلك مسرعين ، كان علينا أن نعبّر الشارع لنصل إلى مبنى الاتصالات وكان عريضاً جداً لذا فقد قطعناه وكادت السيارات أن تصدمنا فالسيارات كانت خلف إشارة المرور سرعان ما فتحت فى أثناء عبورنا للشارع ولما نبلىغ منتصفه ، وإذا بسيل من السيارات تعبر الشارع الذى نقطعه وإذا بهم يفاجأون بنا وحدث ارتباك كاد معه أن تصطدم إحدى السيارات بنا ، ولكن الله سلم وجرينا مسرعين إلى الطرف الآخر .. وما إن وصلناه حتى تنفسنا الصعداء على بداية الشارع كان هناك ملهى ليلي تقف أمامه سيارات وتنسكع حوله فتيات ..

أجريت الاتصال وقررنا أن نعود عبر أنفاق خصصت للسير فى أثناء البرد وبالفعل نزلنا إليها ومشينا فيها .. وكانت خاوية هادئة .. ولكنه الهدوء الذى يخيف الغرباء من أمثالنا .

وظل محمد إبراهيم يمرحه الميهود يداعبني قائلاً : من غير المعقول أن تتعرض لك إحدى عصابات المافيا وأنا سأدعوك إلى حفل زواجى المأمول . بادلته بقولى : إننا لا نأمن على نفسينا من المرور فى مثل هذا التفق وأنت تكلمنا عن الزواج من أهل تلك البلدة .. وضحك ومشى وهو يردد جملتين يعجبه جرسهما على أذنه وهما (يانيزنايو) ومعناها أنا لا أفهم وكذلك (يانيسانيمايو) ومعناها لا أدرى ... وهكذا ظل يكررها بصوت عال . ابتسمت وقلت له : لو تخيلت من يمشى فى بلاد العرب ويردد بصوت عال أنا لا أعرف فماذا كنت ستقول عنه ؟

فى أثناء ذلك لفت نظرنا صوت خطوات من خلفنا والتفت فوجدت مجموعة من الشباب يسرون فى نفس اتجاهنا .. وبالطبع يلتفت نظرهم وجودنا ترى فيم يفكرون وأى نوع من الناس هم ؟ تجاوزونا ونظروا إلينا

باستغراب كانوا خمسة ولكنهم لم يبدر منهم ما يزعجنا . ووصلنا إلى
المترو إنه أكثر أماناً من ذلك النفق واستقللناه إلى (بوتاتشيبي ساد) ، أخيراً
قاربت الرحلة المزعجة على الانتهاء . النور مقطوع فى الشارع ، ونحن فى
طرف الحديقة القريبة من الفندق ، كان هناك أحد الشمالى يترنح ويسقط على
الأرض إعياءً .. رباه كم هم مغيبون ، يهربون من واقعهم إلى (الفودكا) .
لامنا (دارا) على الخروج مساءً وقال : لقد كنتم فى خطر حقيقى
وسأقص لكم ما حدث لبعض معارفى كانوا يقطنون شقة ، وذات مساء
إحدى الفتيات طرقت عليهم الباب فقد رأوا ذلك من عين الباب وفتحوه
دون أن يتحققوا فإذا بجماعة من الشباب تقتحم المنزل ويوسعونهم ضرباً ثم
أخذوا كل ما يمكنهم حمله ورحلوا بعد أن تركوهم مقيدى فى الحمام ..
قلت : ولم تركوهم هكذا .. قد يموتون قال : إنهم أناس لا قلب لهم ، ومع
ذلك فقد سلم الله بأن أنقذهم قريب لهم كان يمر ليزورهم بين حين وآخر ،
ودخل عليهم فوجدهم فى حالة يرثى لها .. ودخل علينا عماد وشاركنا
بقوله : لقد كان أحد الزملاء فى المؤسسة يمشى مع زوجته فى محطة المترو ؛
فتعرض له بعض الشباب من الروس ، وقالوا له : أعطنا سجائر . قال :
ليس معى . فقالوا : إذن أعطنا نقوداً نشترى بها . فقال : لا . فما كان إلا أن
اعتدوا عليه هو وزوجته وكانت حاملاً فسقط حملها .. تبادلنا النظرات أنا
ومحمد كطفلىن يؤنبهما والدهما □

فى الفندق

كان المفترض أننا نستعد للذهاب إلى دورة أخرى فى مدينة اسمها (نالشك) ولكن لم يحدث توفيق فى ذلك فقد عمد مسئولو الهيئة إلى البحث عن مكان آخر لعقد دورة نشارك فيها وبعد إجراء الاتصالات تقرر أن تذهب مجموعة الشباب إلى (سان بطرس بوج) وأن أذهب أنا و(محمود) إلى (قيرغيزيا) على حدود الصين ، لذا فقد كان علينا أن نستعد للسفر بعد يومين حسب مواعيد الطائرة .

فى المساء التقينا بعبد الحميد داغستاني وهو شاب سعودى نذر نفسه للدعوة فى تلك البلاد وكتب كتياً ضمنه شيئاً من تاريخ تلك البلاد ، ومعلومات عنها وقد ذكر فيه طرفاً من تراجم بعض العلماء والمجاهدين فى تلك البلاد الذين عاصروا بدايات الشيوعية وقاوموها ومنهم الشيخ شاميل أشهر علماء المنطقة ومجاهديهم فى العصر الحديث . التقينا بعبد الحميد على العشاء وكان معه بعض ضيوف من السعودية .. إننا لاندوق طعاماً فى هذا الفندق إلا إذا كان عبد الحميد موجوداً ، أما إن كان غائباً فإن الخدم لا يمدونا بأى طعام ، ونكتفى بالطبع بأن نأكل الجبن والخبز والبيض المسلوق، وتحديثنا فى تلك الليلة عن هذه البلاد وما يراد بها وقال عبد الحميد: إننا نجد بعض الأعمال التى يمكن استغلالها فى الدعوة مثل إعداد البرامج لمحطات الإذاعة والتلفزيون أوحى استئجار وقت فيها بمبالغ ليست كبيرة إلا أننا لانجد كفاءات يمكنها أن تعمل فى تلك المجالات .

قلت : كيف .

قال : لا يوجد من نعتمد عليه من أهل البلاد الذين يتقنون اللغة أو

يتقنون العمل على الأجهزة .. وليس معى فيها أحد .

قلت : أليس من سبيل آخر .

قال : دبرنى .

قلت : تدريب مجموعة فى إحدى البلاد ..

تجاوزنا ثم انصرفت إلى حجرتى وكان فى الممر امرأة تتسكع وهى تنظر إلى . ودخلت إلى حجرتى .. إن لغة العيون لغة يفهمها البشر لاسيما الرجال والنساء .

الناموس .. ذلك الضيف الثقيل .. كم أوسعنا ترحيباً فى (موسكو) وقد حاولنا أن نكافحه دون فائدة فإذا أغلقت النافذة أتعبنى الحر وإن فتحتها امتنص الناموس دمى .. فماذا أفعل ؟ أخيراً وجدت أقراصاً تباع ذات رائحة تطرد الناموس .. وتقلب بطنى أيضاً..!

فى ذات ليلة كنت قد صليت العشاء مع الإخوة نزلت إلى حجرتى .. فإذا بطرقات هادئة على الحجرة وصوت امرأة هامس ينادى من خلفها .. هممت أن أرد ؛ ولكنى قلت لى نفسى وماذا يفيد ردى فلربما كان الأفضل ألا أرد ؛ فأنا ابتداءً لا أعرف إلا قليلاً من مفردات اللغة ، وأنا لا يعرفنى أحد فلن يضيرنى عدم الرد ، وتذكرت ما روى عن العصابات التى تقتحم على الناس غرفهم أو بيوتهم بمثل تلك الحيل .. وقررت ألا أفتح .. وازدادت الطرقات حدة .. وأنا بالداخل أشغل نفسى بقراءة كتاب والطرقات تنقطع تارة ثم تعود أخرى وهكذا نمت وأنا تفرعنى الطرقات ثم استيقظت فى النهاية على صوت رجال وامرأة يجلسون أمام الغرفة يتكلمون ويصيحون .. يبدو أنهم سكارى .

وفى الصباح كنت متجهاً إلى المصعد فإذا بالمرأة التى كانت تنظر إلى

تسرع لتركبه معى فخذعتها فى آخر لحظة تاركًا إيهاا تركب وحدها
ضيق ذات اليد مع غلو المعيشة من أكبر أسباب البخل هكذا كنت أقول
لنفسى كلما تعاملت مع أحد الناس هنا فلا أحد هنا يعطيك شيئًا أو يدعوك
إلى طعام أو يساعدك بدون مقابل تقريبًا.. إنها الحياة المادية التى خلفتها
الشيوعية ..

اتصلت بأحد الإخوة هنا .. أعطانى رقم تليفونه أحد الأصدقاء
بالدوحة.. لأنقل له تحيات هذا الصديق .. وكان قد خطر ببالى أن أسأله أن
يساعدنى فى الحصول على جهاز التليفون الذى أريد .. وكنت كالعادة قد
بحثت عنه فى كل مكان هنا فلم أجد منه حتى جهازًا واحدًا فى أى سوق
مررنا به.. فلما اتصلت به وسألته عن هذا الجهاز أرشدنى إلى شخص اسمه
(جام شيث) وهو أخ طاجيكي اتصلت به عدة مرات وواعدنى أنه سيبحث
لى وفى النهاية قال : هناك جهاز واحد ولكنه بيع قبل يوم واحد من طلبى
له. وجاء هذا الصديق ليزورنا فكلمه محمد إبراهيم فى قضيته .. يريد أن
يبحث له عن زوجة !

ويحك يا محمد .. ! □

حشود عسكرية

جاءت الأخبار باستعدادات عسكرية وحشود على الحدود مع الشيشان وتحدثت تلك الأخبار عن انقلاب وشيك على حكومة الشيشان التابعة لموسكو* كما جاءت أخبار أخرى عن إغلاق حدود داغستان بسبب انتشار وباء الكوليرا .. وفى أثناء ذلك حدث تقليص لعدد العمالة داخل الهيئة خرج على أثره كل من (عماد ودارا) من الهيئة .. أحزنتنى ذلك ورغبت فى أن أكلم عبدالحميد داغستانى ولكنى لم أجده ، وهنالك كان موعد سفرتنا إلى (قرغيزيا) (أو قرغيزستان) على الحدود الصينية قد حان ، وكان المرشح للذهاب معى هناك أخى (محمود) فقد كانت تلك رغبتنا سوياً أن نذهب إلى هذا المكان لأن فيه مخيمًا دعويًا وكنا نعرف أهمية ذلك فى حين فضل الآخرون الذهاب إلى دورة فى (سان بطرس برج) ، وقد أغراهم ماسمعه عن جمال الحدائق والمباني هناك ، وحان وقت خروجنا من موسكو وتجهزنا للسفر وذهبنا إلى المطار سوياً ووجدنا .. هذه المرة هى أول مرة أسافر منفرداً فى هذه البلاد التى لا نتقن لغة أهلها ولا هم كذلك يعرفون لغتنا أو أى لغة أخرى للمخاطب .

وآخر ما مر بنا فى موسكو مما أثار عجبى هو أننا خرجنا أيضاً منها دون ختم للخروج فقط ذهبنا إلى المطار ودخلنا إلى صالة الانتظار وفحصوا التذاكر ثم سمحوا لنا بركوب الطائرة إذن فقد دخلت إلى موسكو وخرجت منها دون أختام (!!)

حانت منى إطلالة عند باب الطائرة وكأنى ألقى نظرة وداع على تلك المدينة الصاخبة ، أغلب فيها مشاعر متضاربة راودتنى فيها .. ما بين خوف وألفه ودهشة لكم تتغير نظرتنا للمكان إن أقمنا فيه ... □

* كان ذلك بداية الحرب بين الشيشان والروس التى أدت إلى الانفصال .

إلى كازخستان

ركبنا الطائرة إلى كازخستان وهي أكبر الدول الإسلامية من حيث المساحة تبلغ مساحتها حوالي ٤, ٢ مليون كيلو متر مربع في حين أن عدد سكانها لا يتجاوز الـ ١١ مليون شخص وعلى عكس الطائرة التي أقلتنا إلى (أوكرانيا) من (الشارقة) كانت تلك الطائرة فهي أكثر اتساعاً وحديثة وبها مضيفات شابات يتكلمن بعض مترادفات الانجليزية فهي بذلك على العكس في كل شيء ! بالرغم من أنها طائرة داخلية إلا أننا أعطينا وجبة عشاء أكلنا منها الخضروات والسلطة فقط إذ إن اللحم غالباً غير مذبوح على الشريعة الإسلامية .

إننا نسير عكس الزمن فقد كان الوقت الذي خرجنا فيه من موسكو يقارب منتصف الليل في حين أن فرق التوقيت بين البلدين أربع ساعات تقريباً .

الليل يحيط بنا ونحن في الطائرة بين السماء والأرض .. مشهد مهيب يا رب رحمتك .. إن الكرسي الذي أماننا يجلس فيه رجلان وامرأة ، المرأة بجوار الشباك وبجوارها أحد الرجلين ، والذي افترضت جداً أنها زوجته ، والآخر صديق .. وطيلة الساعات الخمس التي قطعناها في الطيران والمرأة تهدد هذا الرجل فتأخذه في أحضانها وتقبله وتداعب شعره وخده ونحن جالسان لا نستطيع حراكاً ولا إنكاراً في هذا المكان البعيد وغربة اللسان والمكان .

وبعد فترة جاءت المضيفة بزجاجات خمر صغيرة لمن شاء ، قلت ليل

وخمر بين السماء والأرض فكيف إذا نزل بنا عقاب الله تعالى ؟ وتعجبت من تقديم الخمر على طيران يفترض أنه متجه إلى دولة مسلمة ! وجاءت تباشير الصباح بعد أن غلبنا النوم وكنا نستيقظ بين حين وآخر ولا ندرى هل أذن الفجر أم لا حتى لاح لنا الصباح فقمنا لتوضأ . المرأة التي أماننا لانزال تمارس هوايتها! ..أتراها تحبه لهذه الدرجة أم أنه الحرمان فما إن وجدت أحدهم حتى تعلقت به ؟ كل ذلك جائز هنا ؛ فالنساء همهن الرجال ، والرجال همهم الخمر ، وابتسمت وأنا أتخيل أن بعد هذا الحب غالباً يأتي من الشقاق ما تشهده ساحات المحاكم وأروقة مخافر الشرطة فى الغرب .. وتوضأنا وصلينا فى مكان فسيح من الطائرة .. وتحيرنا القبلة والناس ينظرون إلينا .. ماذا يفعلون .. وأنا أسأل نفسى أليس منكم رجل رشيد يصلى معنا !

وصلنا إلى المطار مطار ألما آتا عاصمة كازخستان ونزلنا على أقدامنا إلى صالة الاستقبال .. ليست بعيدة ولا قريبة وعلى باب الصالة لم نخطئ مستقبلنا ولم يخطتنا : شاب فلسطينى ، يدرس هنا ووقفنا بانتظار الحقائق وكان هناك يهودى ينتظر حقايبه وينظر إلينا إنه له شكل اليهود المميز والذي لم نكن نعرفه إلا بعد أن لفت مضيفنا نظرنا إليه فقد كان يلبس بدلة سوداء كاملة وطاقيه سوداء مستديرة وكبيرة - ليست كالصغيرة التى يستخدمونها فى الصلاة ولكنها شبيهة بملابس رعاة البقر الأمريكان ، وكان يجدل شعره كهيئة النساء لينسدل شعره من الطاقيه على كتفيه ، كان ينظر إلينا ويتأمل فينا ونحن أيضاً ننظر إليه ونتعجب من اهتمامه بنا ، وأخيراً وبعد طول انتظار وجدنا الشنط فأخذناها وانصرفنا ما هذا .. ألا توجد جوازات هنا أيضاً ؟ إن صالة الاستقبال مفتوحة على الشارع فما أن تأخذ نأخذ شنطك إلا وتنصرف راشداً لا يعرف أحد من أنت ولا لماذا دخلت إلى هنا ؟ .. شىء غريب ! □

على الأرض مرة أخرى

أكثر ما يلفت النظر فى كازاخستان هو الأشكال الصينية لكثير من السكان هنا بالإضافة للأشكال الروسية التى اعتدنا عليها فى موسكو وأوكرانيا فكانا كطرفى نقيض ، فالروس بأشكالهم الأوروبية قد رحلوا إلى هذه البلاد ليحتلوا فيها مواقع القيادة فى حين رُحِّل كذلك الصينيون وغيرهم من تركستان الشرقية إلى هذه البلاد بأشكالهم المعروفة وعيونهم الضيقة وشعورهم السوداء ليعيشوا فى هذه البلد مع غيرهم من الجنسيات التى منها الأكراد المحليين والأتراك والأوزبك بأشكالهم الشرقية المتقاربة .

خليط هو إذن من البشر ومع ذلك يعيشون فى هذا المكان وقد ألفوه فلم يعد الروس إلى بلادهم .. أو لعلمهم لا يملكون القدرة المالية على العودة أو لعلمهم قد وازنوا بين الأمان الذى يميز تلك البلاد عن غيرها لاسيما وهم مازلوا يحتلون مواقع القيادة كحالهم السابق . ولك أن تتخيل أى نفوذ لروسيا الحالية فى تلك البلاد المستقلة .

دخلنا إلى حيث يقيم الدعاة أنهم يرون بنفس ظروف العمل الدعوى فى هذه البلاد وهم طلبة يمارسون العمل الدعوى من خلال الهيئات الخيرية، وبالطبع فهم يتكتمون الإعلان عن الأنشطة التى يقومون بها خشية ملاحقة المافيا ورجال المخابرات والمتطفلين من الناس ، إن الشباب فى هذه الشقة يبدوون أكثر عملاً وتنظيمًا للدعوة ؛ فهم لديهم ماكينة لنسخ الأشرطة السمعية (الكاسيت) وكميات من النشرات بلغة أهل البلد .

عرض علينا الإخوة أن نستكمل نومنا فمنا مرحبين .. إن السفر يُعلم من اعتاد عليه أن ينام فى أى مكان ، أن يتصرف بأى إمكانيات ، وبعد أن استيقظنا جلسنا نتكلم معهم عن خطوتنا المقبلة □

فرص ضائعة

لم تكن كازخستان بالنسبة لنا إلا محطة انتقال إلى قرغيزيا التي بها المعسكر الدعوى ، وكان علينا أن نتجه إليها عن طريق البر فكان لزاماً أن نستقل سيارة إلى هناك وقد ذهب أحدهم لإحجاز المهمة ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث مع الباقين ، وقلت : سمعت أن كزاخستان بها خيرات على مد البصر ، قال أحدهم : وفيها ما هو أكثر من هذا فهنا مثلاً يتوفر اليورانيوم الذى يستخدم فى صناعة القنابل النووية وطبعاً يتبع ذلك وجود خبرات تقنية عالية فى هذا المجال .

قلت : ويا ترى بعد تفكك الاتحاد السوفيتى هل هناك محاولات للاستفادة من تلك الخبرات فى البلاد ؟

قال : هناك من الأجنب من سارع بالاستفادة من هذه الإمكانيات سواء بافتتاح مصانع التعليب ، أو بتهريب اليورانيوم ، وغيره من الإمكانيات ، أو سرقة التكنولوجيا والخبرات لنقلها إلى البلاد الغربية . أما موقع المسلمين من كل ذلك فهو الفئات مع الأسف الشديد فمبادرات الدول الإسلامية للاستفادة من تلك الفرص كانت قليلة للغاية . كما أنه يوجد خلاف مع روسيا على الحدود ، وقد يكون هناك نزاع مرتقب بين البلدين ولذلك انعكاسات سلبية على العملية الاقتصادية برمتها .

سألت : وبالمناسبة ما اسم العملة التى تتعاملون بها هنا وكم تساوى ؟
قال : العملة هنا فى كزاخستان اسمها (التنجة) والدولار الواحد يساوى ٤٥ تنجة ، وعلى كل فئة من التنجة توجد صورة مرسومة لشخص مختلف وأرانى بعض العملات وكان شيئاً مسلياً : فمثلاً يوجد على الأوراق فئة

التنجة صورة الفارابي الفيلسوف المعروف ، فى حين يوجد رسم لصورة
أحد أبطالهم هنا واسمه سيويناي على فئة (٣) تنجة ، بينما فئة (١٠) تنجة
توجد عليها صورة شخص اسمه شوكان من مواليده ١٩٣٥ !
بعد ذلك سأل محمود : وما أخبار الدعوة الإسلامية فى أوساط الناس
هنا ؟

نظر الشباب إلى أحدهم وكان أكبرهم فانبرى قائلاً : الدعوة فى هذه
البلاد الإسلامية أفضل من غيرها من بلاد الاتحاد السوفيتى السابق ، وإن
كانت بالطبع لا تضاهى بأى بلد من البلدان الإسلامية الغير تابعة لهذا
النظام الشيوعى ويكفينا دليل على ذلك عدم وجود مساجد إلا ما ندر ،
والجهر بالخمر فى الشوارع ، وندرة أو انعدام الحجاب بل وندرة من يصلح
عموماً مع الأسف الشديد .

فما زال القوم فى مرحلة الانتقال ودور المسلمين فى ذلك هام جداً فى
إعادتهم □

السفر براً

اتفق الشباب مع سيارة (ميكروباس) قديمة لنقلنا وما نحمل من شنط إلى قيرغزيا وودعناهم شاكرين .
استغرق سفرنا بالبر حوالي ٥ ساعات وكنا برفقة أحد الشباب من الهيئة في (المآآنا) وهى بالمناسبة تنطق (المآطا) عند أهل البلاد هنا .
طال علينا السفر وفكرنا أن نتناول شيئاً من الطعام ولم نتمكن من ذلك لأن مرافقنا حذرنا من أنهم يزعمون أن اللحوم المستخدمة مذبوحة على الشريعة الإسلامية وهى ليست كذلك ، قلت : حتى فى تلك البلاد الإسلامية لا يتم الذبح على الشريعة ! نظرت لمحمود وقلت بحسرة :
والأسفاه ضاعت وجبة اللحم المشوى ولم يكن هناك شىء آخر يمكننا أكله إلا اللحوم ، فعلى طول الطريق تنتشر شوايات قريبة من استراحات كانت تغرينا برائحتها مع الجوى الجميل : المائل إلى الدفء .. لاسيما وقد أتعبنا
السفر □

قيرغزيا

قبل الحدود سألنا مرافقنا إن كان لدينا تأشيرات دخول لقيرغزيا فأجبنا بالنفى : فقال أخشى أن يستوقفنا موظفو الحدود وكأنه كان يتنبأ بما سيحدث.. فقد أوقفنا على الحدود ولكن السائق كلمهم دون أن يشعروهم بأن معه غرباء.. لذا فقد سمحوا لنا بالدخول. إن هذه البلاد كانت جزءاً واحداً أيام الشيوعية ثم سقطت وتحولت إلى دويلات وحدود.. وكان الأولى بها أن تتحد الدول المسلمة منها فى قوة واحدة؛ لتكون أكثر قدرة على تحمل متغيرات ذلك الانقلاب، ودخلنا إلى قيرغزيا وبهذا نكون قد اجتزنا حدود أربع دول دون أختام دخول وخروج! إذ دخلنا إلى موسكو بعد خروجنا من أوكرانيا وخرجنا منها بدون أختام وعبرنا كازخستان وخرجنا منها كذلك بدونها الآن إلى (قيرغزيا) دون أختام أيضاً فى للعجب!

بعد أن توجهنا إلى محل إقامتنا تعرفنا على ساكنيها الجدد : شابان لطيفان أحدهما فلسطينى اسمه نضال والآخر مغربى واسمه أبو مصعب ، وهما يعملان فى الهيئة أيضاً ، ودعنا مرافقينا قبل أن نستقل بسيارة خاصة نقلونا إلى المعسكر .

الطريق رائع الجمال .. جبال محيطة بنا تتسلقها أحياناً زراعات لفتها باللون الأخضر كما أننا مررنا على نهر صغير قيل لنا أنه ينبع من جبل قريب من المعسكر والطريق يرتفع أحياناً فتبدو السهول تحت الجبال وقد تناثرت حولها البيوت التقليدية المبنية بالخشب والمتشابهة فى أشكالها واللطيفة فى بساطتها فتبدو كبيوت الأساطير التى يحكون عنها فى تلك البلاد. بدا المكان وكأنه صورة متميزة لفنان مبدع، وأى إبداع أعظم من إبداع الله سبحانه وتعالى، وصلنا إلى المعسكر قرب حلول الليل.. والشمس تؤذن بالغروب فيزداد المنظر روعة بذلك الشفق الأصفر الذى يسبق الغروب.. وبعد أن حل الظلام بدأنا نشعر ببرد لم نعهده من قبل .. □

إسيكاتا

إن مكان المخيم جبلى مرتفع .. وقد حل علينا المساء فما وصلنا إلا ونحن نرتجف من البرد .. قلت لمحمود : فكيف يبرد الشتاء ! إنه منتجع جبلى يسمى (إسيكاتا) بمعنى العين الدافئة ، والمكان فعلاً عين دافئة تنبع من الجبل ، ولأن بها أملاًحاً مفيدة فقد كان الناس يأتون إليها للاستشفاء ويشبه اسم ذلك المنتجع اسم منتجع آخر شهير فى هذه البلاد يأتيه سواح من البلاد المحيطة اسمه (إسيكول) وفيه كما يبدو من المقارنة عين باردة .

أول ما لاحظناه هنا أن بالمكان عدة أعرق : فالمسلمون هنا أعراق وأشهر القوميات المسلمة هنا هم (الدومغان) وأشكالهم صينية و(الايوغور) وهم من الأحناف ولهم أصول تركية بالإضافة إلى وجود مجموعة من الشباب من قرية أصلها من داغستان (على حدود روسيا) وقد نقلوا أثناء الحكم الشيوعى إلى ذلك المكان البعيد وتعدادهم فى القرية حوالى ألفى نسمة وقربتهم اسمها (واستشنى) أخبرنى بذلك الأخ نضال ونحن نتوجه إليهم واستقبلنا جماعة من الشباب الداغستانيين لفتوا أنظارنا بأجسامهم الطويلة وأشكالهم الجميلة ولونهم الأبيض المشوب بالحمرة .

وهم الذين استقبلونا ، وبكل احترام حملوا أمتعتنا فى خفة لفتت نظرى .. ما شاء الله لقد كان يعينى أن أحمل حقيبتي الثقيلة فما هو إلا أن تلقفها أحدهم من يدي ووضعها على كتفه حتى انطلق بها كأنه يحمل طفلاً صغيراً .

ثم سارعوا إلى تجهيز وجبة الطعام المنتشرة هنا ؛ أرز مبشور عليه جزر وبه لحم ، وبالرغم من أن الأرز المستخدم فى هذه البلاد من نوعية رديئة لا

تنضج كلياً إلا أننا استمتعنا بهذه الوجبة وشعرت بالدفء يدب فيّ بعد أن كنا نرتعد برداً .

بدأنا نتعرف على الشباب . إن المستول عنهم هنا يحسن الكلام بالعربية إلى حد كبير واسمه (عبد المطلب) وبالرغم من أن سنه يقترب كثيراً من سنونهم إلا أنهم كانوا يجلبونه ويحترمونه بشكل كبير ، وكان بالنسبة لهم كالكائند في كل شيء ؛ فهو الذى يصدر الأمر للذهاب أو للانصراف مثلاً ، وأدركنا من اللحظة الأولى أنه مركز قوى لا يستهان به فى المكان .

الفارق الكبير بين الدول ذات الأصول المسلمة هنا وبين الدول الأخرى ذات الأغلبية من الكفار (كأوكرانيا وروسيا مثلاً) هو أن الأمة المسلمة حرصت على هويتها وعلى عدم الانخراط فى المجتمع الكافر فى التعليم بالذات ، ثم فى غيره من أسباب الاختلاط فكان من نتيجة ذلك أن حمت تلك الأقليات نفسها أمام محاولات طمس الهوية ، أما الأقليات المسلمة التى لم تفعل ذلك كمثلى من رأيناهم فى (القرم) فإنهم إلى حد كبير خسروا كثيراً .

صحيح أن فى الانغلاق خسارات من جهات أخرى كعدم الاستفادة من الدعم الحكومى لبعض الأنشطة أو عدم وجود تكامل فى البلاد الإسلامية فى بعض النواحي كالتعليم الجامعى مثلاً . إلا أن المكسب النهائى يكون عظيمًا من الناحية الإسلامية وهذا مثال حى أمامنا إذا قارنا بينه وبين من رأيناه من إخواننا فى غير هذه البلد .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول (أنا برئ من كل مسلم يقيم بين ظهرانى المشركين..)

فالإقامة مع المشركين تؤثر بلا شك فى التعمود على حياتهم ، بل واستحسانها ، وسقوط قضية إنكار المنكر مع استشرائه ؛ وفى ذلك خطر

عظيم بالإضافة لضياع مفهوم الولاء والبراء - الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين - ولعل أم جريج العابد كانت محقة إذ رأت أن مجرد رؤية وجوه المومسات عقوبة (كما فى الحديث المشهور) ، ويا ليت العرب يقتدون بهم فى ذلك فيجعلون لأبنائهم من يربونهم من العلماء ويتعاملون معهم تعاملًا لائقًا بمكانتهم .

سألت (عبدالمطلب) عن الراتب الذى يتقاضاه كيف يوفرونه له فقال : هذا شيء متعارف عليه من بعيد فكل أسرة تلزم بدفع مبلغًا من المال شهريًا كوقف منها على هذا العمل ، وبذلك يصبح هذا المبلغ حق وقفى يجب عليهم دفعه وهم يجمعونه بطريقتهم ليصل بعد ذلك مرة واحدة إلى المدرسين بشكل لائق وكريم .. فيا له من تكافل □

زهور وسط الصحراء

تعرفنا بعد ذلك على الأخ (سليمان) وهو من (الدومغان) وهذا الأخ شعلة نشاط ماشاء الله ؛ فهو يتكلم بخمس لغات من بينها العربية والتركية والصينية بالإضافة للروسية ولغة أخرى محلية ، وهو كذلك يقوم على مدرسة هو مديرها ومؤسسها تخدم الجهة التي يسكنها ويدرس فيها طلاب كثيرون .

كما أن له اهتماماً خاصاً بتربية الأخوات المسلمات ، وقد رأينا عجباً منهن ومن أخلاقهن في أثناء إقامتنا بهذا المكان .

ذات مرة كنت أسير في طريقى متوجهاً لمكان المحاضرة وكانت بعض الأخوات يسرن بالاتجاه المقابل فما أن رأيتنى حتى سارعن بالاختفاء ، وكيف ذلك والطريق كان أرضاً مزروعة بنبات الحشيش وليس هناك مكان يتدارين فيه ، ولم أعر الأمر اهتماماً إلا أننى عندما اقتربت من مكان سيرهن السابق لاحظت أنهن يتوارين خلف أعواد من الحشيش طويلة .. لذا فقد آليت على نفسى كلما رأيتهن يمشين ذهاباً وإياباً فى طريقى أن أسارع أنا بتغيير مسارى حتى لا أوقعهن فى حرج مماثل .

وظللنا أنا ومحمود نضرب كفاً بكف أن يوجد فى هذا المكان وفى تلك البلاد نساء بهذا الحياء .

فالمقارنة بين أحوال النساء فى تلك البلاد وبين حال أخواتنا كالمقارنة بين السماء والأرض ؛ إذ تمشى الروسيات فى هذا الصيف وقد تخفضن من ملابسهن إلا قليلاً .. فالحمد لله الذى هدانا للإسلام فرفعنا من ذلك الحضيض إلى هذا الطهر والعفاف وإلا فما الذى يمنع هؤلاء

الأخوات من أن ينخرطن فى تلك الإباحية التى تجر على النساء نكدًا أو حزنًا ، ويا حسرتهن بعد فوات الجمال وانصراف الرجال عنهن . إن أخواتنا بحق كزهور جميلة نبتت فى صحراء جرداء .

تعرفنا كذلك على مجموعة من الطائفة الثالثة (الأبوغور) فأغلبهم من كبار السن وتلمح بركة أولئك الذين التزموا بإسلامهم فى تلك الظروف التى مروا بها أما كبيرهم فاسمه الشيخ (عبد المجيد) وهو شيخ للمسجد العام بالبلد وخطيبه وهو رجل طيب لا يحسن العربية ولكنه مؤثر جدًا فى أتباعه الذين يتبعون المذهب الحنفى .

من هذا الخليط المختلف اللغات المتباين السن يتألف ذلك المخيم الذى حللنا به ، ومنذ اللحظة الأولى التى وصلنا فيها شعرنا أن هناك اختلافًا واضحًا بين الواقع السابق الذى عشناه وبين واقع تلك البلاد .

لفت نظرى أن الأحناف يصلون فى الصلاة السفلية للمكان الذى يقيمون فيه فى حين أن الشباب الذين مع (عبد المطلب) يصلون دائمًا فى صالة للرياضة عند مكان مرتفع إذ يتكون ذلك المخيم من عدة مرتفعات وخشيت عندئذ أن يكون التفرق فى أداء الصلاة بين الفريقين هو بسبب الخلاف المذهبى وعزمت أن أسأل عن ذلك □

أنشطة دعوية

اتفقنا على أن تكون المحاضرات صباحية محاضرة لى وأخرى لمحمود فكانت محاضراتى عن السيرة النبوية الشريفة فى استعراض سريع لأهم جوانبها ، ثم كانت ندوة عامة للإجابة عن الأسئلة ، ومحاضرة عن القرآن الكريم وإعجازه ، ومحاضرة عن أهمية النية وأهمية اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان نظام المحاضرة غريباً أن ألقى جملة أو فكرة ثم أنتظر وكان الأخ (سليمان) بعد ذلك يترجم إلى التركية ثم بالروسية ثم الصينية وهى اللغات التى يتكلم بها الحضور ، ولنا أن نتخيل كم هو شاق على الأخ سليمان أن يقوم بتلك المهمة فيتلقى الجملة من المحاضر ثم يعيد شرحها بتلك اللغات الثلاث ، لذا فقد كان الإرهاق يبدو واضحاً على أخى سليمان - بشكله الصينى - ويتصبب عرقاً بشكل يثير الشفقة بعد انتهاء المحاضرات .

أما بالنسبة لنا فى الإلقاء فقد كانت العقبة الوحيدة التى نواجهها هى أن الأفكار قد تتوه أو يضطرب نسقها مع الانتظار حتى الانتهاء من تلك التراجم الثلاثة .. وبالرغم من تلك المشقة فقد كنا نشعر بسعادة غامرة إذ وصلنا إلى تلك البلاد وأتاحت لنا فرصة الالتقاء بأولئك الإخوة قد لا نكون أضفنا الكثير من العلم إليهم - فالجهل هنا منتشر - ولكن حسبنا من ذلك أن نشعر ويشعرون بتلك الأخوة الإيمانية التى تجمع بيننا : من عرب جاءوا من أواسط الشرق إلى أترارك وصينيين من أقاصيه .

لم يجمع بيننا لسان وإنما جمعت بيننا قلوب ألف الله بينها .
فى إحدى المحاضرات الأولى عن السيرة تكلمت عن ذلك المعنى فى

معرض حديث عن الحالة قبل بعثة الرسول ﷺ وما كانت عليه الجاهلية من قطع للأرحام وإساءة للجوار وشرك بالله تعالى ، وكانت تلك المقارنة بحال الأمة ولاسيما فى تلك البلاد مثمرة فهى تبين الحاجة إلى ماكان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وطاعة لله تعالى للخروج من ظلمات الجاهلية سواء كانت بائدة أم معاصرة . ولم تفتنى الإشارة إلى أهمية التخلص من تلك الجاهلية العالقة بنفوس البعض .

من الأخطاء الطريفة التى تقع أحياناً فى الترجمة أن المترجم لقللة علمه أو لسهوه قد يوصل مفهوماً خاطئاً دون قصد منه ، وقد حدث فى محاضرات السيرة خطأ بسيط فى ترجمة الأخ سليمان إذ كنا نتكلم عن نزول الوحي على رسول الله ﷺ ومجىء جبريل عليه السلام إليه فى الغار على صورة رجل فكانت الترجمة أن رجلاً جاء إلى رسول الله فى الغار وقال له اقرأ ونسى أن يذكر أنه جبريل وأنه ملك فكان الأمر موهماً وقد انتبه الإخوة إلى ذلك فنبه الشيخ عبد المجيد وعبد المطلب وأخ فلسطينى اسمه أشرف وهو أيضاً من الهيئة جاء ذلك اليوم مع صديق له اسمه معن وبعد ذلك الخطأ انضم عبد المطلب إلى عملية الترجمة ليخفف من عبئها عن سليمان .

فى بداية المحاضرات لاحظنا أن النساء لا يحضرنها وتعجبت أليس المراد من الحضور هنا الاستفادة الشرعية لذا فقد توجهت إلى سليمان وهو الذى يقوم على المدرسة التى تنتمى إليها أغلب المحاضرات كما أسلفت فقال : إنهن يستحجن من الحضور . قلت له : فلم أئين إذن إلى المخيم إذا لم يحضرن تلك المحاضرات .. وتذكرت قول عائشة رضى الله عنها رحم الله نساء الأنصار لم يمنعن الحياء من التفقه فى الدين .

وبالفعل استطاع سليمان أن يقنعهن بالحضور ، وبالنسبة فالمحاضرات

تقام فى قاعة مسرح ، وعندما استجابت الأخوات كن يجلسن فى الجزء
الأخير منه ومع استمرار المحاضرات كنا نلاحظ تفاعلهن معها ، وقد كن
يرسلن أحياناً ورقات أسئلة أو إجابة على بعض أسئلة يطرحها المحاضر
وكان من بين الحاضرين غير المسلمين أتوا للتعرف على الإسلام ومنهم
روسيات يجلسن فى المقدمة أحياناً أو بجوار الرجال ولم نكن نمنعهن من
ذلك طمعاً فى أن يتعرفن على الإسلام □

المخيم

المكان رائع الجمال حقًا . جبل قد بُنى عنده المخيم .. فكان المخيم يقع عند أسفله ويأخذ جزءاً منه ، وكانت هناك مسارات يجرى فيها الماء الذى ينحدر من الجبل لتكون مساركاً يزيد من روعة المكان فتلاحظ الماء وهو يسرى إلى جوارك أينما توجهت . صحيح أن المكان قديم كحال أغلب المباني التى رأيناها فى تلك البلاد كما أشرت إلى ذلك آنفاً إلا أن ذلك لم يؤثر فى جمال المكان .

كما أن المباني تقع خلف مسار الماء لذا فهم يضعون معبراً يربط الطريق بالمبنى ، والبنيات تقع متفرقة فى المكان يحيط بها حدائق وأماكن للجلوس دائرية بالإضافة للمسرح وصالة الألعاب الرياضية .

أما الجبل الذى ينبع منه الماء فهو على يمين الداخل إلى المخيم ويخرج منه الماء مندفعاً من فتحة قرب قمته لترسم شكلاً بديعاً عند سقوطها قبل أن تستقر فى المسار السفلى للنهر الصغير الذى يمتد إلى عدة كيلو مترات وهناك أيضاً جبل صغير على اليسار ، تتناثر عليه زراعات تنبت ربانياً دون تدخل البشر لتضفى عليه جمالاً من نوع آخر .

أما من داخل المخيم فنتشر أصنام للرجل الصنم (لينين) الذى أنشأ تلك الدولة مترامية الأطراف .. مثل أغلب الأماكن العامة هنا .. لقد تخلص الشيوعيون من الأديان بزعمهم ليستبدلوها بعبادة الأشخاص والأهواء والأصنام !

خطر لى ذات مرة أن أضع يدي فى الماء الذى يسرى على يمين الطريق ويساره فلما فعلت وجدته ماءً حاراً وتذكرت اسم المكان (اسيكاتا) العين

الدافئة ، وتكلمت مع عبد المطلب عن الاستشفاء بهذا الماء فقال : إنه توجد حمامات هنا يتردد عليها المقيمون بالمكان ، وإذا شئت ذهبنا عصرًا إليها لتأخذ حمامًا داخل المكان المخصص . قلت لنفسى لم لا أجرب .. ولم يكن بى والله الحمد شيئًا يحتاج إلى الاستشفاء وإنما قيل لى إن ذلك يفيد الجلد عمومًا ويطرد آثار البرد من العظام وذهبنا بالفعل ..

وكانت هناك قائمة شروط أو قل ملاحظات هامة ينبغى أن تراعى فمنها عدم التأخر عن وقت معين فى الاستحمام بمعنى أنه لا يتجاوز المستخدم مدة ١٥ دقيقة داخل الماء وينبغى أن لا يكرر الاستحمام قبل مضى يوم كامل .. وقاست إحدى المشرفات ضغط دمي ثم سُمح لى بالدخول ، كان عبد المطلب ينتظرنى بالخارج .. باب زجاجى يفضى إلى (بانيو) به (دش) له مسار للماء الساخن - من العين - وأخرى من خارجها للتبريد بها ومن ثم تخفيف أثر الأخرى من الأملاح حتى يحسن استخدامها ، ويحاول المستخدم الصمود لأطول فترة فى الماء الحار .. بعدما دخلت وهممت أن أخلع ملابسى فوجئت بأنه وإن كان الحمام مغلقًا على (ترباس) من الداخل عبر الباب الزجاجى إلا أنه فى الحقيقة مفتوح من الناحية الثانية على زملائك من المرتادين بمعنى أنه يوجد ممر داخلى يربط بين الحمامات من الداخل وبعضها ، وانزعجت إذ تصورت أنه بسهولة يمكن لأى مستخدم للحمامات المجاورة أن يتمشى بينها أو أن يظل على ليسانى كم الساعة معك الآن !

وخرجت إلى (عبد المطلب) الذى بادرنى بقوله أمعقول أنك انتهيت بهذه السرعة فشرحت له الوضع فدخل معى وأطل على من هم عن يمينى ويسارى محذرًا من دخول أحد على ثم طمأننى قائلاً : إنهم من المسلمين فلا تخف لن يظل عليك أحد .

وترددت ثم أغلقت الباب ، وخلعت ملابسى إلا من سروالى الداخلى
(احتياطياً) هكذا قلت لنفسى .

إن الماء شديد الحرارة لاسيما إذا لامس شيئاً من الجلد من غير كف اليد
التي اعتادت على ملامسة الأشياء ، ولما كان الأمر بالنسبة لى مجرد تجربة
فقد فتحت الماء البارد حتى أستطيع أن أستخدم الحار . استطعت فى النهاية
وبصعوبة أن أغمس جسدى فى الماء ، وما هى إلا لحظة بعدها حتى فوجئت
بالمشرفة التي قاست لى الضغط وهى تمر بهدوء داخل الحمام ما الذى
أدخلها (يا عبد المطلب) وأتانى صياحه من الخارج وقد فهم مجاورى
ما حدث وأخذ يبدي التأسف .. ثم سألتنى بعد أن خرجت بفضول عما
حدث فقلت له : الحمد لله لقد كنت أرتدى سروالى فضحك وأسرت
فى نفسى أنه خيل إلى أن تلك المرأة كانت تنظر إلى مكان موضع معين من
جسدى □

صديقى معن!

(هاجيت) .. كلمة سمعتها كثيراً من الأخ (معن) ولم أفهم معناها وكان كثير التردد لها سنذهب (هاجيت) المحاضرة (هاجيت) .. وحدث أن سألته ذات مرة عن الأخ أشرف فقال ذهب هاجيت .. ابتسمت وقلت له : معن هل لك أن تفسر لى معنى (هاجيت) .. فنظر إلى كمن ينظر إلى شخص هبط من القمر .. معناها (الآن) .. وأخذت أرتب فى ذهنى كافة المعلومات التى كانت تصلنى عن طريق هذه الكلمة على ضوء المعنى الجديد الذى اكتسبته .

حدث فى مساء أحد الأيام أن كنا نصلى مع عبد المطلب وإخوانه صلاة العشاء ، وكنا قد لاحظنا قبل ذلك أنهم عندما ينتهى الإمام من قراءة الفاتحة فإنهم يقولون (آمين رب العالمين) بدلاً من الاكتفاء بقول (آمين) فقط كما هو معروف ، ونظراً لما نعلمه من حساسيات القوم فى التعرض المباشر لما اعتادوا عليه فقد رأيت أنا ومحمود أن نؤجل كلامنا معهم حول تلك المسألة إلى وقت مناسب لمجتمع فيه مع (عبد المطلب) لأننا سألناه أول مرة سمعناهم يقولونها فقال : إنها فى مذهب الشافعية .

وقبل أن نتحدث معه راجع الأخ (محمود) المسألة فوجد بالفعل قولاً فى الشافعية يقول ولا مانع أن يقول آمين رب العالمين .

أما (هاجيت) فحدث أن صلى معنا الأخ أشرف ومعن . وهى أول مرة يصليان معنا صلاة جهورية وبمجرد انتهاء الصلاة قام أشرف بكل حماس وتكلم عن البدع وأن كل بدعة ضلالة وبدا وكأنه سيتكلم فى هذا الموضوع

وفهم عبد المطلب كلامه فقام أمراً من معه بالانصراف وعدم الإصغاء له وبالفعل قام الجميع وتركوا المكان .. وهمست لأشرف : لقد كنا ننتظر الفرصة المناسبة لمناظرة عبدالمطلب فى هذا الأمر وبأليتك انتظرت قليلاً فهم نشأوا على ذلك وقد يصعب عليهم أن يتلقوه منا مباشرة وفى مرة واحدة .
وكأن أشرف قد فوجئ برد فعلهم فسكت ، ثم تحدث محمود مع عبد المطلب داعياً إياه أن يأتينا إلى غرفتنا قليلاً .

وجاء عبد المطلب بالفعل وتكلمنا طويلاً.. كيف أن الأولى بنا أن نلتحق ولا نفترق ، وأن نلتحق على ما أجمعت عليه الأمة أولى من أن نأخذ بشيء من المذاهب ولاسيما فى الصلاة - يكون مختلفاً عما تناقلته الأمة وتلقته بالقبول .

ولو صلينا جميعاً فقال بعضنا آمين فقط والبعض الآخر مثل ما تقولون لحدث شيء من الالتباس والارتباك ، وعموماً فالمدى لم يلزمكم بتلك الصيغة وكلمته عن أهمية الالتزام بالسنة عموماً إذا استبان .
وبعد أخذ ورد اقتنع عبد المطلب بأن الأولى أن يترك هذا القول وأخذ على عاتقه أن يبلغ من معه بذلك ، وحدث بالفعل بعد هذا اللقاء وفى بعض المرات أن نسي بعضهم فقال آمين رب العالمين ولكنهم اعتادوا بعد ذلك على الاكتفاء بآمين □

شاي خفيف

محمود له جذور من الصعيد .. وهو يحب أن يشرب الشاي ثقيلًا كعادة أهل الصعيد ، والجماعة هنا اعتادوا أن يقدموا لنا شايًا خفيفًا للغاية بل إن شئت فقل كأنه ماء مغلى كادوا أن يضعوا فيه شايًا لكنهم نسوا ذلك .. وكل مرة بعد المحاضرات نجلس للإفطار فيمدوننا بهذا الشاي المذكور وكل مرة أيضًا يعلق محمود لو بس يزودوا الشاي ، قلت له ذات مرة مبتسمًا : ألم تتعود بعد على هذا الشاي ؟ قال : لا أبدًا .. فقلت له إذن كف عن الشكوى ، لقد حفظت شكواك التلقائية كلما وضعوا لك شايًا . فضحك وقال : ماذا أفعل ؟ لم أعتد في حياتي على مثل ذلك وأنا أدمن شرب الشاي . قلت : أما أنا فلا أشربه إلا هنا ؛ لأنه لا يوجد غيره ، والحقيقة أنني لا أشربه إلا مضطرًا لأنني لا أحب أن أتناول شيئًا أحس معه بالحاجة إليه بعد ذلك كحالة مدمنى الشاي من أمثالك .

طعامنا هو ذلك الجزر المبشور على الأرز واللحم وهذا ما اعتدنا عليه طيلة فترة مكوثنا هنا ، وأحيانًا كثيرة لم يكن للحم نصيب معنا فيكتفون بالأرز فقط .. ومع مرور الأيام لا نأكل إلا أرزًا فى الغداء وشايًا على الإفطار وبييضًا مسلوقًا على العشاء ، سئمتنا تلك الوجبات فالحضروات قليلة وأورثنا ذلك عسرًا فى الهضم .

وذات مرة جاء طبيب تركى يتكلم العربية بدرجة معقولة ليزور أحد أقربائه فى المخيم وأحضر خروفاً وقاموا بإعداد وجبة مكرونة مسلوقة باللحم المفروم وشوربة فكان تغيراً جيداً لا بأس به □

جلسة مع الأصدقاء

جلسنا نتحدث هنا وسألت (سليمان) : عن عدد القوميات في البلد قال من الراديو قالوا إنها ثمانين قومية .. قلت : سبحان الله عدد كبير جداً فكم يبلغ إذن تعداد السكان قال : أربعة ملايين وأغلبهم من المسلمين ، قلت : وهل هم ملتزمون بالإسلام مثلكم ؟ قال : إننا فيهم قلة ولكننا موجودون على العموم ، وبعض الناس قد بدأ يشعر بفقدان الهوية والرغبة في العودة إلى الجذور ، قلت : كحال من قابلناهم في البلاد الأخرى ؟ قال أشرف : إن هنا مقالاً رأيناه في إحدى الجرائد لكاتب مشهور يعقد فيه مقارنة طريفة بين الشيوعية والإسلام فقال لقد كان الشباب في منطقتنا لا هم لهم إلا شرب الخمر والفودكا والدخان ومراقبة الفتيات وإذا أردت أن تراهم سكارى في أى وقت رأيتهم لاسيما ليلاً ، أردت : وأظن أن بعض الناس يتجمعون حتى الموت بسبب السكر في تلك البلاد قال فعلاً المهم أن الكاتب قال ولقد حل بالمنطقة داعية إسلامى كريم واجتهد في دعوة هؤلاء الشباب إلى الصلاة والعلم والخير ، ولم يمض على ذلك شهر حتى اختفى الوضع السابق وأصبح هؤلاء الشباب طيبون جادين والتحق كل منهم بعمل أو دراسة .

ثم أردف الكاتب يقول : لقد كان ماركس ولينين يقولان : الدين أفيون الشعوب وكذبا ؛ فما نراه الآن هو أن الشيوعية هي أفيون يخدر جسد الأمة ويلهى شبابها فى الخمر والنساء دون أن يعملوا على النهوض بأممتهم . قلت: وما نراه من فشل لتلك الدولة المنصرمة - الاتحاد السوفيتى - هذا هو أيضاً دليل على ذلك فما كانت فى عمر الأمم إلا لحظات سكر انتشى بها

قائلوها ثم فوجئوا بانهيارها .

قال محمود : عموماً الحمد لله أن شهد شاهد من أهلها ، أضاف
عبد المطلب : رئيس الجمهورية الآن عسكري أكابو ستل عن الشيوعية ولماذا
لا تتبع أفكار ماركس ولينين ؟ فأجاب إن عقلي أكبر من عقليهما .

قال سليمان : هل علمتم بأن الحكومة الفرنسية قد طلبت من موسكو أن
يبيعوا لهم جثمان لينين لوضعه فى متحف اللوفر هناك !
قلت : لقد رأيتاه فى مبنى أمام الكرملين ولم نذهب لنصبق عليه فهو
أحقر من ذلك ، ولم يبق لمثل هذا الفكر إلا أن يوضع فى المتاحف .

كنا نسكن فى أحد المباني الخشبية التى يعج بها المخيم وكانت غرفتنا فى
نهاية الطرقة ، وكان لهذا المبنى مشرفة صينية وكثيراً ما كنا نسمع فى أثناء
مروونا أصوات ترتفع بأغنيات صاحبة من غرفتها ، وقد لمحتها ذات مرة
وقد فتحت الباب على مصراعيه ووقفت هى وأخرى على الباب يرقصان
على تلك النغمات .. ولما كان الأمر فى هذه البلاد أننا نهتم فقط بما جئنا من
أجله ومع ضعف أو انعدام حصيلتنا اللغوية ؛ فإننا بالطبع لم نتمكن من
الكلام أو ممارسة الدعوة مع الآخرين .

ذات مرة جاءنى (عبد المطلب) وكان يبدو عليه الضيق ثم قال : لقد
وجدت هذا الخطاب مع أحد طلابى .. قلت : وماذا فيه ؟ قال إنه خطاب
من مشرفة الدور عندكم إلى أحد الطلاب وتعتب عليه فيه أنها جاءت
حسب الموعد وانتظرته ولم يأت ، قلت : وهل سألته عن ذلك ؟ قال : فى
البداية تهرب منى وعندما أصررت عليه أن يخبرنى تكلم وقال إنها هى التى
تشاغله وهو لا يهتم بها ولكن كانا قد تمسحنا سوياً بناءً على رغبتهما وقد

واعده في وقت لاحق ولكنه لم يأتها ، قلت : وكيف ستصرف في هذا الأمر؟ قال : عاقبه وشدت عليه ، ولكن ماذا أفعل فشبابتنا كما ترى في عنفوانهم ، وهم بذلك يغرون الفتيات . قلت مؤمناً : إنهم ما شاء الله ذوى أشكال وسمية حقاً .

ضحك قائلاً : وهذا ما يوقعنا أحياناً ضحية تلك الأشكال الجميلة ؛ إذ نحاول الفتيات أن يتعرضن لنا لاسيما وأن رجالنا في الحقيقة أجمل من تلك النساء .

قلت مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه عليه في أثناء المحاضرات والتذكير بقصة ذلك الشاب الذي أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنا فقال له أترضاه لأملك أترضاه لأختك وهو يقول : لا يا رسول الله فيقول له : ولا الناس كذلك يرضونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ثم دعا له الرسول بأن يحصن الله فرجه فعلينا أن نفعل ذلك □

مغامرة فوق الجبل

أغراني الجبل بشكله الجميل على صعوده ؛ فلم يكن جبلاً كبيراً بحيث يسمى الصعود إليه تسلقاً ، كما أنه كما ذكرت تجمله الخضرة النابتة عليه وتضفى عليه بهاءً لطيفاً .. لذا فقد عرضت الأمر على (معن) وهو يسير معى عصرًا أحد الأيام فوافقتنى على الفور وصعدنا متأملين ذلك الجمال . وكنت بين حين وآخر ألتفت إلى المخيم وأنظر إليه من فوق وقد تكشف أمامنا فرأينا طرقة أمامنا والناس يمشون فيها .. إن المنظر السفلى جميل إذا صعدت كما إن المنظر العلوى جميل إن كنت فى أسفل.. وتأملت وقلت لنفسى هكذا الدنيا .. يتبدى لك الجمال فى غير ما فى يدك فإذا تحولت إليه بدا لك ما كنت فيه أجمل مما ذهبت إليه .

على الجبل كنا نسير سوياً - أنا ومعن - وأنا أنطلق فى مرح فهذه أعشاش طيور على أشجار صغيرة وتلك الغربان التى تعودنا عليها فى تلك البلاد .. وهنا حمام يطير شكله ضخم قليلاً .. أما (معن) فكان يسير ناظرًا إلى الأرض فالتفت إليه وسألته عن تواجدته وإقامته ، وكان كعادة الشباب هنا يدرس .. ماذا فى الأرض حتى يركز فيه هكذا .. سألت نفسى وظللت أنظر إلى الأرض معه .. أعشاب بها بعض الحشرات التى تفرز أحيانًا لحركتنا فتفر من أمامنا .. وصلنا أخيراً إلى القمة وكان بها بيتًا مهجورًا أظن أنه كان منتجماً لطيفاً فى شبابه .

جلسنا نستريح قليلاً .. وجدت على الأرض جلدًا مزركشًا والتفت إلى معن .. يا معن ما هذا الجلد .. نظر إلى : ألا تعرفه ..؟ قلت : أشك أهو جلد ثعبان .. قال : نعم .. سألته فى حرج : وهل بالجبل هنا ثعابين ؟ قال

مبتسمًا : يبدو .. وعرفت سر أنه لا يصعد إلى المكان إلا القليل من الناس ..
وسر تأمل (معن) كذلك في الأرض حال صعودنا.
وتذكرت كل الطرق التي يتمكن بها الإنسان من الهبوط من على جبل
دون المرور على أرضه .. التلفريك والأجنحة الطائرة ولم يكن هناك بد من
النزول على أقدامنا حيث لم تتوفر تلك الأسباب في هذا المكان بعد ..
وكانت رحلة النزول السريعة .. بل السريعة جدًا □

مشكلة الكتب

لو نعلم قيمة ما فى أيدينا من المصاحف وما لدينا من الكتب لعاملناها معاملة لائقة عن ذلك ولشغلنا أوقاتنا بها قراءة وتعلماً وتدبراً .. هكذا قلت لنفسى لما جلسنا أنا ومحمود وعبد المطلب نتحدث فشكا لنا الأخير من نقصان الكتب لديهم ، وحجم المشكلة يبدو ضخماً أمامنا إن علمنا أنه لا توجد مطابع بها استعدادات لطباعة الكتب بحروف اللغة العربية لمن يقرأها أو لطباعة الكتب الدينية عموماً باللغات الأخرى التى يعرفها من لا يعرف العربية فلا سبيل إذن أمام إخواننا هناك إلا أن نغدهم بما لدينا فى بلادنا من مصاحف أو كتب ، وكنت قد سمعت أن إحدى دور النشر بالسعودية قامت بطباعة بعض الكتب المترجمة أما ما رأيناه هنا فى تلك البلاد فقليل جداً ولك أن تتخيل مثلاً أنه لا يوجد كتب فى السيرة إلا ترجمة يسيرة كتبها السروائى عبد الحميد جودة السحار ! وأنا أتعجب فى أمر من أسند إليه الترجمة لم لم يهتم بترجمة كتاب آخر لبعض كتاب السيرة المعروفين وليكن الترشيح لأحد المعاصرين ، مثلاً وهكذا قس على ذلك التراجم الأخرى فالقوم يحتاجون إلى كتب عن الفقه والتوحيد وتزكية النفوس والتحذير من البدع وموقف أهل السنة من الفرق التى قد تجرد مرتعاً أمامها تلك النفوس المتعطشة للخير والمتفتحة للتوجيه ، بالإضافة للمصاحف التى بها نقص شديد لذات الأسباب المذكورة ، وباليات بعض المحسنين يهتم بإنشاء مطبعة فى تلك البلاد لتخدم تلك الأمة بأسرها ولعل ذلك يكون ذا ربح أيضاً فى الدنيا .. واضطربنا بسبب ذلك أن نجمع ما كان معنا من كتب وكتيبات وأعطيناها لعبد المطلب كنوع من الحل السريع والواقعى للمشكلة □

مناظرة

أقمنا إحدى المحاضرات فى المسرح كالمعتاد خصصناها لمناقشة عامة .
الحضور كان قويا فقد سبقت تلك المحاضرة دعاية داخل المخيم فجاءت
مجموعة من الساكنين ليحضروا لأول مرة ، ووجهت الأسئلة إلى وكان
أحدها عن طبيعة المسيح عليه السلام وقد وجهته امرأة - يبدو أنها صحفية
أو شئء من هذا لأنها كانت تكتب ما أقول وتسال أحيانا - وقد بدأت
الكلام فى تلك القضية بالحديث عن إرسال الله تعالى الرسل وإنزاله
للكتب لصالح الدنيا وليقود الرسل أمهم إلى ما يحبه الله ويرضاه ، ثم
عددت بعضاً من الأنبياء ممن يعرفهم الجميع كنوح وإبراهيم وموسى عليهم
السلام ، وقلت إن طبيعة البشر أن تدعن للبشر لذا لم يرسل الله الرسل من
الملائكة حتى لا يدعى أحد صعوبة الاقتداء بهم .

إذا فهمنا ذلك واستقر فى أذهاننا قسنا عليه المسيح عليه السلام فقامت
المرأة وسألت ولكن لم لا يكون إلهاً قلت إن العقيدة التى تبنى عليها
المسيحية المعاصرة أمر نزول الإله - بزعمهم - هى عقيدة الفداء فقد نزل
الإله حتى يكفر خطيئة آدم عليه السلام ، ثم أتبع ذلك بعدة أسئلة ماذا عن
الأمم السابقة مثل تكفير الخطيئة ؟ هل سيعذبون بها أم لا ؟ لم تأخر نزول
المسيح على آدم كل تلك القرون ! ألم يكن الأولى أن ينزل بعد الخطيئة ،
وهل غفر الله لآدم قبل ذلك أم لا ؟ إذا كان قد غفر له فلم يكون الفداء ؟
وإن لم يغفر له فلم ندعوه نحن إذن وقد نحتاج إلى فداء آخر على كل ذنب
نقترفه ؟ لم نزل المسيح طفلاً ثم كبر ثم الفداء ؟ لم لم ينزل كبيراً مرة
واحدة ليتم الفداء والخلص .. ما الفرق بين المسيح وغيره ولم لا نقيسه على

غيره من الرسل بمعنى ما المانع أن يكون رسولا كغيره ؟ ألكونه أحياء الموتى .. فقد أحيانا موسى فى حادثة البقرة وأحيانا إبراهيم فى أربعة من الطير .

وأخيراً هل خلا الكون من إله - وحاشا له - عندما صلب المسيح ؟ وأشرت إلى اختلاف النصارى حول الابن هل هو الإله نفسه أم بعضه ؟ وقارنت بين ذلك وبين عقيدة المسلم فى الله وفى رسله .. أحسست أن المحاضرة كانت موفقة وأن الحضور قد اقتنعوا جداً حتى تلك المرأة سككت ثم سألت عن كتب الإسلام فوعدها الحضور بإعطائها وهم يحسون بالفخر والثقة .

وجاء سؤال آخر من أحد الحضور - إنه رجل كبير يمسك عصاً - كنت ألاحظ وجوده فى كثير من محاضراتنا .. إنه يسأل عن أدلة وجود الله تعالى لقد سأل السؤال بشيء من التحدى المستفز .. فتعجبت لظنى أنه من المسلمين وبدأت أتكلم عن أن لكل موجود موجد وأن كل شيء فى الدنيا نلمسه لا بد أن يوجد له صانع وذلك مصداق قول الله تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) .. انظر إلى هذا التوازن الرائع والتقرير المحكم لخلق الله لو اقتربت الشمس لا حترقتنا ، ولو بعدت لتجمدنا ، ولو زادت نسبة الأكسجين لسهلت الحرائق ، ولو قلت لاختنق الناس وهذه التسوية لخلق الإنسان : عين لا يمكن تعويضها إن فقدت ، يد تتحرك بيسر وسهولة ، قلب ينبض دون توقف ألا يدل ذلك على وجود الله ؟

فرد بنفس لهجة التحدى : لكننا لا نراه أمامنا وما أظن الأمر إلا محض أساطير انفعلت لجراته ولكنى رددت ببرود وقلت له وأنا أحس أنه يتهاوى وهل ترى تلك الكهرباء التى تنير تلك الغرفة هل تشاهد الالكترونات التى تمر بتلك الأسلاك .. أم أنك تكتفى بوجود الإضاءة للاستدلال على مرور

الالكترونيات .. هل ترى روحك التي لو خرجت من جسدك لما نقص من الجسد شيء .. إنه لا فرق بين الإنسان الحي والميت إلا الروح غير المرئية رأيته يفكر ويتأمل .. وانتهت بعد ذلك المحاضرة بوضع أسئلة خفيفة

قال لى سليمان : هل تعرف الرجل المجادل الذى كان فى المحاضرة السابقة ؟ قلت : لا .. قال إنه مفكر مشهور اسمه عزيز ناريناي وكان قبل ذلك فى الحزب الشيوعى ولكنه الآن بعد انهيار الاتحاد السوفيتى يكتب تاريخ (الأيوغور) ، رددت : لقد استنبطت من أسلوب كلامه أنه يجادل بشكل غير طبيعى ، ولما فكرت فى أمره أحسست بالشفقة عليه فإن من تربى فى الشيوعية ورأى بعد ذلك انهيارها وسقوط فكرها يحاول أن يتشبث بشيء يثبت لنفسه به أنه لم يضيع عمره هدرًا .

قال : لعله الآن يراجع نفسه فى آخر حياته .. فقد أسر إلى بعض معارفه هنا بأنه تأثر كثيرًا بالمحاضرات ولاسيما المحاضرة الأخيرة التى ناظرته فيها . قلت عسى أن يراجع نفسه فيختم له بخاتمة الخير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن العبد ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها □

مع عبد المطلب

جاء عبد المطلب إلى حجرتنا - أنا ومحمود - وجلس إلينا وكان يحمل بعض الكتيبات التي أعطيناها له ، وما إن جلس إلينا حتى مد يده بها قائلاً : لا أريد تلك الرسائل .. وتعجبنا : لم ..؟ قال : تلك المطبوعات الملونة الصغيرة .. إننا نعرفها جيداً ، كثيرًا ما يمدوننا بها ؛ إنها تدعو إلى الوهاية . ولم تكن تلك الرسائل إلا مجموعة كتيبات عن التوحيد وبعضها عن الأخلاق وكظمت غيظي : ألم تشكو لنا يا عبد المطلب من قلة الكتيبات ورجوتنا أن نمذك بشيء منها ؟ قال : نعم ولكن الفكر الوهاى هذا شيء نرفضه . قلت له : وما هو الفكر الوهاى ذلك الذى ترفضه ؟ قال : الوهاية أولئك الخوارج عن الخلافة الذين يكفرون الناس . قال محمود مهدئًا إياه : صبرًا يا عبد المطلب ولا تلق التهم جزافيًا هناك بلا شك نوع من التجنى قد حصل لتشويه الدعوة الوهاية : فالشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن يكفر الناس بمعاصيهم وذلك ثابت فى كتبه ؛ وكل ما فى الأمر أنه عمل على محاربة عبادة القبور والشرك بها من دون الله ، أضفت : وهل تقر مثلاً أن يتخذ القبر صنماً يعبده الناس ويقربون له القرابين ويطوفون به ويخدعهم الشيطان بأن ذلك يقربهم إلى الله ؟ قال : لا . فقلت : وهذا ما دعى إليه الشيخ وعموماً كل الناس يؤخذ من قولهم ويترك إلا النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلو فرضنا أن الشيخ أو غيره قد قام بأعمال طيبة وأخرى أخطأ فيها فلنقبل منه الطيب وأنت فى فقه الشافعية تعمل بحديث إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث . قال : وما وجه الربط فى ذلك ؟ قلت : لو أحسن المسلم - لاسيما إن كان من أهل العلم والفضل - إحسانًا كبيرًا ثم أساء مثلاً فإن حسناته تغطى على تلك السيئة . قال فى تحفز : وهل أنتم وهاية ؟ قلت : نحن إخوانك مسلمين مثلك وهل رأيت منا انحرافًا أو ضلالاً قال : لا .. قال محمود : فلا تجعل الشيطان يوسوس لك بما يبعد بيننا وبينك □

دورة المياه

أريد أن أصف الحياة التي عشناها في تلك البلاد وصفًا دقيقًا نستنبط منه التربية التي تبنتها تلك الفكرة - فكرة الشيوعية - لتعرف عظمة هذا الدين الذي ننتمى إليه .

أقول هذا توطئة لما سأذكره الآن من وصف لدورة المياه التي تقع في الدور الذي نسكنه من المبنى القديم . إن الدور كله الذي يسكن فيه أكثر من عشرين شخصًا تخدمه دورة مياه واحدة ، ولا تتعجب إن قلت لك أن دورة المياه الواحدة تلك باب واحد يفتح على عدد (٢) كرسى حمام ! كيف ذلك؟ أبدًا إذا أردت أن تدخل دورة المياه ما عليك إلا أن تفتح الباب الذي يحوى هذه التحفة الفنية ثم تلتقى تحية الصباح أو المساء على زميلك الجالس على الكرسي الأول لتتجه بعد ذلك إلى الكرسي الثاني الذي يفصل بينه وبين الكرسي الأول ساتر زجاجي ولك أن تتخيل ذلك أن يطل عليك من هو بجوارك ليسألك هل أعجبك الغداء اليوم مثلاً؟ بل إننا كثيرًا ما كان يصل إلى مسامعنا خارج دورة المياه أصوات من هم بداخلها وهم يتحدثون . (مش ممكن) قلناها سويا - أنا ومحمود - عندما اكتشفنا هذا الكشف

الجغرافي العبقري .. لقد تحملنا قبل ذلك في دورات مياه أخرى عدم وجود المياه وكنا نحملها معنا ، وتحملنا كذلك قذارة بعضها التي لا نطاق وتحملنا وجود ستائر متهتكة تستر الحمام عن الناظرين بالكاد أما هذا فلا يطاق وكنا نتناوب - أنا ومحمود - الحراسة إذا دخل أحدنا إلى دورة المياه يظل الآخر على الباب واقفًا لئلا يدخل عليه أحد إذ لم يكن للباب كذلك (ترباس) يغلقه من الداخل .

وفى إحدى المرات التي دخلت فيها إلى تلك الدورة وكان محمود واقفاً خارجها فى نوبة الحراسة وأنا - احتياطياً - فقد اخترت الدورة الداخلية وما هى إلا لحظات مرت حتى تنهى إلى سمعى صوت الباب وهو يفتح ولم أكن فى وضع يسمح لى بأى تصرف سريع .. يا محمود ماذا حدث ..؟ صاح من الخارج : وماذا أفعل لقد حاولت التفاهم معه فلم يستجب فقد كان يقول لى بالإشارة إن بالداخل اثنين وأنا أشير إليه أنك بالداخل .. انتهيت من أمرى على وجل وانتظرت حتى خرج .. ومن وقتها أصررنا على الإخوة بأن يتحدثوا ترباساً صنعوه من سلك ومسمار يمسك أحياناً ويفتح أخرى ! لذا فقد كنا نختار الأوقات التي لا يكون عليها ضغط من المستخدمين كأوقات الاستعداد للصلوات .

وقد ظللنا أياماً نضحك على تلك التجارب الصعبة وكثيراً ما كان (محمود) يدافع عن موقفه السليم بأنه حاول أن يمنعه ولكن الرجل أزاحه من طريقه وهو يشير فى عصبية (اثنان .. اثنان) □

ليالى ممطرة

كانت السماء تمطر فى أغلب الليالى على المنتجع .. ويصحب ذلك بردٌ يجبرنا على ارتداء أكثر ملابسنا وبما أن قدومنا كان صيفًا فلم يكن لدينا الاستعدادات المناسبة لمثل تلك الظروف .. وإن كان المطر على هذا المنتجع الجبلى يضىف عليه جاذبية أخرى إذ تسير قطرات المطر فى صفوف منحدره من أعلاه إلى أسفله متخذة مسارات تتلألأ على ضوء الأنوار والقمر ، ويشارك معها كذلك الماء المنحدر من الجبل الذى يسير فى مساراته ..

فى إحدى الأمسيات دعانا عبد المطلب إلى حفل سمر أقامته مجموعته .. وحضر معنا أشرف ومعن وسليمان وكان السمر فى أغلبه مجموعة مسابقات تبارى فيها الشباب ، ولا تخلو من فكاهة وكان بين أولئك الشباب فتى ختم القرآن من قريب فكانوا يحترمونه .. وحدث فى إحدى تلك الألعاب أن استدعاه مقدم الفقرة ليسأله أسئلة فكاهية وبدأ بالفعل يسأله والآخر يجيب والحضور يضحكون ، وأحسست وقتها بالغيرة على القرآن فليس هذا الأخ بالشخص المناسب للعبة كهذه بل الواجب أن يعطوه قدرًا من الاحترام لإجلالاً لما معه من القرآن تشاورنا سريعًا أنا ومحمود وكلمنا عبد المطلب الذى سرعان ما استدعى الحافظ على الملأ وأجلسه بجوارنا فصافحناه وطلب عبد المطلب استحمال الفقرة بآخر.

أردنا أن نضفى على الحاضرين شيئًا من البهجة فقلت لهم : ما رأيكم أن ننشد لكم نشيدًا إسلاميًا لترددوه خلفنا وتعجبوا فى أول مرة ، وتهامس بعضهم فى ابتسام وتفهمنا ذلك لكونهم لا يفهمون لغتنا فكيف سيرددون خلفنا ، قلت لعبد المطلب ترجم لهم الجزء الذى سيرددونه وسيكون يسيرًا عليهم أن يرددوه .. وقد فعل ورددنا نشيد (ليبك إسلام البطولة كلنا يفدى الحمأ) المشهور .. واستعذبه الشباب ورددوه □

تربية الرجال

جاءنا سليمان زائراً .. ورحبنا به .. هذا الأخ كم أعتز به إنه مثال للكفاح المخلص - نحسبه كذلك إن شاء الله - فعلى كتفه تقوم تلك الدعوة المباركة بين مجموعة كبيرة من أهل تلك البلد كما أنه - كما ذكرت - شعلة نشاط وهو بشوش دائم البشر .. سألته : أين تعلمت يا سليمان ؟ قال : لقد كان هناك شيخ من علماء الدين في بلادنا وكان يقوم على تربية مجموعة قوامها ستة من الأطفال وأنا منهم ، وظل يربينا ويوجهنا ويعلمنا العربية إلى أن كبرنا ؛ فوجه كل واحد منا إلى ناحية في البلاد لنؤدى واجب الدعوة إلى الله ، وتمجبت أنا ومحمود من هذا الجهد الدؤوب وهذا الفكر الشاق ، لقد عمل الشيخ رحمه الله على الحفاظ على هوية أهل البلد باختياره لهؤلاء الفرسان الستة الذين حملوا عنه ذلك العلم ونقلوه ففتح الله على أيديهم وكان الواحد منهم بأمة ، علماً وعملاً وحماً لهم الدعوة إلى الله سبحانه ، وليتنا نعى هذا الدرس فإن العبرة بالكيف قبل الكم فهؤلاء الشباب الذين ركز الشيخ على دعوتهم استطاعوا بعد ذلك أن يؤثروا في الناس ولعل الشيخ في هذا الوقت لم يجد فرصة لإضافة المزيد من العمل الجماهيري فقام بذلك الواجب وأفلح فيه بفضل الله تعالى .

ومن ناحية أخرى نلمح بركة الدعوة إلى الله ، وكيف أنها لا تموت لأن الله تعالى قد استجاب لدعوة رسول الله بالآية استأصل من الأمة بعداب .

بيد أنه يجب علينا أن نقوم بما يجب علينا والتوفيق بعد ذلك والحفظ من الله تعالى وقديماً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا تحقرن من المعروف شيئاً) □

حفل الختام

تواترت أيام إقامتنا وأذنت بالرحيل ، وبالرغم من شدة تعبنا من الإقامة وتغير ما اعتدنا عليه من النوم والطعام ، وكذلك بذل المجهود في الدروس واللقاءات إلا أننا كنا نستعذب ذلك ، وما أجمله حقيقة أن أسترجع ذكري أيام أحسست فيها بأننى أقوم بدور هام ومؤثر . ولعلنا ندرك أهمية استثمار المرء لطاقاته التى تعطلها كثيراً رتابة الأيام وتعود التكاسل عن المهام الشاقة .

أحضر الإخوة فى الهيئة أشرف ومعن بعض الكتيبات والأشرطة وصوراً للكعبة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لتوزيعها كهدايا فى الحفل الختامى ، واقتطعت أنا ومحمود جزءاً من أموالنا لنزيد من قيمة الجائزة المخصصة للمعلمين لاسيما سليمان الذى كنا نشعر بحاجته الشديدة للمال وهو المتعفف عن الشكوى - إذ علمنا أن مدرسته تعانى دائماً من قلة الإمكانيات ، وأنه هو وفريق عمله يعملون غالباً بما يسكن جوعتهم .

آه من الهموم التى تنزل عليك تترى وأنت تحس بما يعانىه الإخوة هناك وتقارن بين احتياجاتهم المحدودة - والتى ترهقهم فى نفس الوقت وبين ما لدى إخوانهم من المسلمين فى غير بلادهم - لا سيما أهل الخليج كم نتحسر على صوانى الطعام التى تلقى فى سلال المهملات عقب حفلات الزواج وغيرها ، وقد يكون الدافع لإقامتها الفخر والرياء .. كم نتحسر إذا علمنا أن ثمن ما قد يلقي من صينية واحدة قد يكفى لإعالة داعية إلى الله تعالى لمدة شهر يعان بذلك على حاجاته وعلى أداء مهمته الجليلة .

فلا غرو بعد ذلك أن يتأخر نصر الله للأمة . إذا كانت على هذا النحو من التقصير فى حقوق بعضها وقد قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمنين فى

توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد بالحوى والسهر ، بعد ذلك كانت حفلة الختام وتوزيع
الجوائز وكدنا نبكى ونحن نرى التأثير على وجوه إخواننا وهم يشكروننا
على كوننا شرفناهم وأنهم سعدوا بلقائنا .. وهاهو سليمان يقبلنا فى تأثر
وهو يردد كلمات الشكر بعد أن تلقى هديته .. وأحسنا بألم الفراق ونحن
نلقى عليهم كلمات الوداع فى أثناء انصرافنا .. ترى هل نلتقى بعد ذلك ؟

شاركنا الشباب من مجموعة (عبد المطلب) العودة فى الحافلة التى أقلتنا
جميعاً إلى المدينة وظلوا على استحياء يحفزونا لنردد بعض الأناشيد
لاسيما نشيد لبيك إسلام البطولة وظلوا يرددونه خلفنا وقد حفظوا شطراً لا
بأس به منه :

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدى الحما
لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلماً
لبيك إن عطش اللواء سكب الشباب له الدماء
لبيك لبيك لبيك

هذى الجموع غداً سيجمع شملها فى دولتى
ولسوف ننهض كى تعيش الكرامة أمتى
ولسوف يهتف باسمه الأبطال عاشت رابتى

□ لبيك لبيك لبيك

فى بشكيك

وصلنا إلى المدينة واتفقنا مع عبد المطلب على أن نلتقى فى المسجد العام يوم الجمعة إننا الآن فى (بشكيك) عاصمة قرغيزيا بلد صغير يشبه القرم فى أحجام شوارعها وتشبه كازاخستان فى أشكال الناس فيها .

نزلنا فى ضيافة الأخوين الكريمين (نضال) الفلسطينى وأبومصعب المغربى وهما يدرسان كحال أغلب الشباب هنا (فنضال) يدرس الهندسة و(أبو مصعب) يدرس العلوم ، وقد انتهى من دراسته وهو جالس ينتظر إكمال إجراءات تسلم الشهادة الجامعية

شخصان لطيفان وهادئان ، وبعد هذا التعب اللذيذ الذى مر بنا فى (أستيكانا) وجدنا أنفسنا مرة أخرى فى دعة وانتظار

كنا ننتظر أن نتوجه إلى مكتب جمعية الوقف الإسلامى التى ستقيم تجمعاً دعوياً آخر فى (ألما آنا) عاصمة كازخستان وقد ذهبنا إلى الشقة المطلوبة أكثر من مرة ولم نجد بها أحداً

فى أثناء ذلك كنا نجالس الأخوة هنا وتدور بيننا حوارات مختلفة
قال أبو مصعب :

إن أهل المغرب قد اختلطوا ولفترة طويلة من الزمان بالحضارة الغربية لاسيما بأهل فرنسا الذين كانوا يستعمرونهم ومشكلة الاستعمار الفرنسى دائماً . إنه استعمار يحمل معه ثقافة تحاول أن تغير من الشعوب لذا فقد تعمدوا العبث بمنهج التعليم والتاريخ خصوصاً فى محاولة لتسويه تاريخ تلك الشعوب ، ولإقناعهم أن الارتباط بفرنسا أكثر رقياً وحضارة قلت . لقد حكى لنا أحد العلماء - د عبد العظيم الديب - نقلًا عن

محاضر فرنسى ألقى محاضرة فى تونس إبان احتلالها من قبل الفرنسيين - وقد كان لها وقتئذ حاكم عسكري فرنسى - قال المحاضر محاولاً التقرب إلى التونسيين لقد تعلمنا نحن منكم معاشر العرب والمسلمين الشىء الكثير، وإن الفيلسوف الفرنسى شعيب جان فرانسيس قال : إن أكبر خسارة منى بها الفرنسيون هو أنهم انتصروا على المسلمين فى آخر معركة دارت بينهم ، فقيل له : لماذا ؟ قال : لأنهم كانوا يحملون مشاعل العلم والحضارة وكان هذا الانتصار سبباً فى تأخر فرنسا عن ركب الحضارة الإسلامية عقوداً عدة ... وتعجبنا من ذلك التفسير ، ثم قلت وقد قال الراوى وعلى أثر المحاضرة استدعى الحاكم العسكرى ذلك المحاضر وطلب منه مغادرة تونس فوراً فتعجب الرجل وسأله لمَ ؟ قال : نحن نريد أن نطمس هوية الشعب وأنت تريد أن تحيي فيه أننا تعلمنا منهم ؟

أضاف أبو مصعب : أن لى زوجة خال فرنسية تقيم معنا فى المغرب وتقول إنها وجدت ذاتها فى المغرب فلما سألتها كيف ؟ قالت : إن هنا أماناً نفتقده فى بلادنا .. إن الفرق بين البلدين كالفرق بين الجنة والنار .

قال محمود : وهذا حال معظم من أقام مع المسلمين فى بلادهم وخالطوهم فلقد عرفوا تلك المخالطة شيئاً من ما يجمع بين المسلمين من التراحم ففضله العقلاء على الإقامة فى بلادهم ، قلت : سبحان الله القائل (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألفت بينهم . إنه عزيز حكيم) □

فيدنخا

ذهبنا فى نزهة مع (نضال) إلى (فيدنخا) ، نفس الاسم الذى فى موسكو فهو يطلق على الحدائق الكبيرة .

إنها حديقة كبيرة الحجم حقًا والمفروض أن بها حيوانات كما حكى لنا بيد أنا بحثنا عنها فلم نجد إلاّ بضع غزالات وحصانين أو ثلاثة وبركة متسخة فيها بعض الأوز والبط .

كانت نزهة لطيفة استمتعنا فيها بجمال الطبيعة التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، ووقفنا معجبين بجمال شجر الأرز بلونه الأخضر المائل إلى الرمادى ، متعجبين من ارتفاع طوله ، ويعد أن قضينا وقتًا طيبًا - أنا ومحمود ونضال - انصرفنا قبيل الغروب .. إن المعجزات هنا يميلون إلىّ أماذا؟ لا أدرى ؛ فكثيراً ما أجد أحدهم يهمس إليّ أو يحدثنى مبتسماً وأضطر أن أبادله بابتسامة وأنا لم أفهم شيئاً .. تصرف تلقائى وجدتنى أكرره كلما حفل أحدهم بى . إذ يكون من يتقن اللغة معنا يجلس فى مكان آخر وأستقل أن أناديه لأسأله ماذا يقول إذ ربما يكون شيئاً تافهاً لا يستحق ، وعموماً فقد اعتمدت هذا الأسلوب لمعالجة ذلك الموقف .. الابتسامة .. ولكم ضحكت من نفسى إذ تصورت أن يكون كلام أحدهم يحتاج إلىّ إجابة أخرى كأن يسألنى أحدهم مثلاً كم الساعة ؟ أو هل مرت بنا محطة كذا ؟ وتكون إجابتى بتلك الابتسامة ، أما اليوم فالحمد لله أن الرجل العجوز الذى كلمنى فعل ذلك أمام نضال فترجم لى نضال أنه يعبر عن إعجاب به بشكلى وبلحيتى فأجبت بابتسامتى المبهودة قبل أن تغادر الحديقة ولم أجد وقتها فرقاً بين معرفتى لمعنى الكلام أو عدمه فالإجابة دائماً تكون

واحدة .. الابتسامة .

وقفنا خارج الحديقة لفترة طويلة أظلمت علينا الدنيا فيها ومع الليل يصعب أن نجد سيارة نقلنا ، والأمر كما ذكرت في بداية المذكرات أنه لا توجد سيارات أجرة في الغالب دائماً هي سيارات أفراد يحسنون دخلهم بالوقوف للراغبين .

البلد هنا أكثر أمناً من موسكو وقد وقف لنا فتى وفتاة روسيان بسيارتهما وأقلنا إلى مكاننا ، وكان الفتى يسمع شريطاً غنائياً بلغته وكان من عادتنا أن نعطي السائق شريط أناشيد أو نأمره بإطفاء شريطه ولكن نضال لم يفعل . يبدو أن الحسابات تختلف بالليل عنها بالنهار ، همس لى نضال قائلاً : إن معنى الأغنية عن امرأة تشكو هجر حبيبها لها إلى واحدة أخرى وكيف أنها اكتشفت خيائته لها ثم هي في النهاية تطالبه بالعودة والغفران ! قلت وهكذا دائماً اهتمامات النساء في كل البلاد □

فى الشقة

لم أر فى حىاتى أصغر ولا أجمل من ذلك الماء الذى فى قرغيزيا فهو ماء ينبع من الجبال وينحدر إلى البلد التى تقع تحتها ، وفوق ذلك فهو بارد فى الصنبور وأبرد من ماء الثلجة المعتاد ، وبالرغم من استمتاعنا بمذاقه اللطيف وإعجابنا بصفاته الأخاذ ، إلا أننا كنا نعانى دائماً من برودته إذا أراد أحدنا أن يأخذ (حماماً) إذ يشعر بنفسه وكأنما أحاط به الثلج من كل مكان ، وقد كان السخان (معطلاً) لذا فقد كنا نسخن أحياناً الماء إذا أردنا أن نستخدمه .

أما الطعام فقد كان الإخوة زهاداً فيه بحق ! فلا أدرى أزهذاً كان ذاك منهم فى الدنيا أم قلة خبرة فى أعمال المطبخ ؟
فلقد عانيتنا - أنا ومحمود - من قلة ذات الأكل فى المكان ، وقد طال بنا المقام بانتظار لقاء جمعية الوقف فلم يكن الأمر يتعدى الجبن والبيض المسلوق فى أغلب الوجبات . فلما اعتدنا على الشاين اقترحت عليهما أن أعد لهما شيئاً مما أعرفه من الطعام ، وبالفعل قمت بطبخ مكرونة حاولت جهدى أن تكون معقولة لتتناسب مع ما أطلقتته من دعاية أننى أحسن الطبخ، ولم تكن على المستوى الذى آمله ولكنها فى النهاية كانت أفضل من غيرها .

وذات مرة اشتقنا لناكل اللحم وكان الطلب عزيزاً فلم نجد لحمًا يثق الأخوة فيه على الإطلاق ! بيد أن (نضال) قال لي : إن راعياً للغنم يمر هنا كل يوم فإذا مر ليرعى أمام المنزل اشترينا منه خروفاً وذبحه لنا لتأكله وظللنا ننتظر من طرف خفى ظهور ذلك الراعى العزيز وقد غاب عنا أيام لم نكن

نتناول وقتها إلا طعامنا المعتاد آنفًا .

والحق أن اللبن هنا - وفي أغلب تلك البلاد - لذيذ وتشعر عندما تشربه بأنك في الريف المصرى ، وكانت تمر سيارة نقل كل يوم وتطلق بوقها ليخرج من شاء ليشتري الحليب منها وهم يضعونه فى خزان أسود على السيارة يخرج منه خرطوم يعمل بالضغط لينطلق منه الحليب وقد كان فيه بعض السلوى بانتظار الخروف العظيم .

المهم ظهر أخيراً ذلك الراعى واشترينا منه خروفاً بما يوازى ثلاثين دولاراً «ذبحه لنا فى منزله الفقير .. إنه عشة صفيح يعيش فيه هو وأبناؤه فكيف يتحملون البرد . وبدأنا مرحلة جديدة فى الطعام مع إنضاج جزء من الخروف كل يوم □

جولة فى السوق

السوم عملة البلد والدولار الواحد يساوى ١٠ سوم وقد كنا نشترى أحياناً بعض احتياجاتنا أنا ومحمود ، وذات مرة اشترينا (أيس كريم) وطلب منا البائع ثمنًا لها عشرين سومًا وتعجبنا أتراه فعل ذلك لأننا أجنب، وقد تفاهمنا معًا بالإشارة أم لأنه النوع الذى طلبناه كان مستوردًا ، وتلك أسعار المنتجات المستوردة .

فى السوق تبدو نفس الملاحظات التى شاهدناها فى موسكو فالنساء العجائز يجلسن يبعض الخبز أو يبعض حبات من الطماطم لبيعنها وهكذا نفس الملاحظة المؤلمة التى تتكرر فى تلك البلاد كأنهم اتفقوا على ذلك ، وهو ما يعكس حجم المعاناة التى يعانيتها كبار السن هنا فأين التكامل بين هؤلاء ، أين أبناؤهم مثلاً؟ هذا لا يوجد إلا فى الإسلام □

صحيفة الجبال الحرة

فى جلستنا بالمنزل قال (نضال) : لقد أغلقت صحيفة فى البلد هنا اسمها (الجبال الحرة) وعرفها الأخ أبو مصعب وتعجبت لذلك حيث أجابه نضال ونحن نسمع : لقد كانت الدولة بعد الشيوعية تباع جزءاً من أملاكها؛ مصانع وعقارات وأراضى وشركات .. إلخ ، ومع الأسف فقد سيطر على عملية الشراء بعض أصحاب السلطة والنفوذ مما جعل من الصعب تحقيق ما يعود على البلاد بالنفع فى تلك الصفقات ، وعلى ذلك فقد تصدى بعض أعضاء البرلمان لتلك الفصائح وكان من أثر ذلك أن اضطر البرلمان لإقامة لجنة تحقيق وكان صراعاً مريراً تسربت أنباءه إلى الجرائد حيث تبنت جريدة (الجبال الحرة) الدفاع عن الحق فاستطاع أصحاب النفوذ أن يغلقوها .

قلت : وهكذا دائماً حلقات صراع الحق والباطل الحرب فيها سجلات يغلب أهل الحق مرة ويغلبون مرة . ثم إذا صغى أهل الإيمان عن شوائب الدنيا وتجردوا لله وكان أمرهم إليه سبحانه فإنه يمكن لهم ويعينهم فليس طريق الحق مفروشاً بالورود وإنما قد يعانى المسلم فى طريقه وقد لا يرى النصر ولا التمكين ، ولكن حسبه من ذلك أنه أدى ما عليه .. وأقول استدراكاً أن هذا الموقف قد ذكرنى بتلك الملاحظات والأفئدة لا ينفع الإنسان عملاً يقوم به حتى ولو كان الدفاع عن الحق .. دون نية الإخلاص لله فى ذلك .

سأل أبو مصعب : ماذا تقصد ؟ قلت : إن رسول الله ﷺ يقول إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فقد يقوم البعض بشيء من أعمال الخير والبر رياءً ومفاخرة فينفع الله به الدين والخير وهو من كل ذلك لا ينتفع إذا

كانت نيته الظهور على الأقران أو حمية الجاهلية . قال محمود : وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل حمية ويقا تل شجاعة أى ذلك فى سبيل الله . قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، قلت : وبعض الناس يخلط بين تبنى زعيم أو سياسى لموقف يكون فيه مصلحة للإسلام أو خير للمسلمين ويظن أنه بذلك قد نال رضاء الله وهو يقوم بذلك دعابة لحزبه أو لذاته فلا ينل عن ذلك ثواباً ولا أجرآ فتخيل معى كم من الهلكى يظنون أنفسهم ناجين ... نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل .

باب الشقة مبطن من الداخل ببطانة من الجلد تحتها اسفنج لتكون عازلاً للبرد وكما كنا نفعل فى البلدان الأخرى التى مررنا بها هنا فقد طلب منا ألا نفتح للأغراب ، وألاً نفتح الباب قبل أن نتأكد من هوية الطارق . وتذكرت ما حكاه لى الأخ منير الذى كان يصحبنا فى أول الرحلة - من أن الطيب كان خارج الحجرة ومنير داخلها يأكل طعاماً فطرق الطيب الباب فأجابه منير : من . قال : أنا . ففتح له الباب ضاحكاً ، فقال الطيب بلهجته الخليجية : قلقونا وخوفونا كل شوية لا تفتحون لأحد حاسبوا .. هايموتوكوا .. ولا شوفنا شيء ثم قلد برأسه وفمه حركة المفزوع بشكل لم يتمالك منير نفسه من الضحك وهو يأكل ؛ إذ انفجر ضاحكاً بوجهه فأفرغ ما فى فمه من الطعام على ملابس الطيب وظلا يضحكان سوياً على الموقفين ؛ سخرية الطيب منهم وقيامه بحركة رأسه ، وانفجار منير بالضحك .

تذكرت ذلك وأنا أفتح الباب لأبى مصعب ثم أسأله بفتور بعد ما فتحت من ؟ دخل ضاحكاً وهو يقول : قبل ما تفتح اسأل □

مركز الاتصالات

خرجنا سوياً أنا ونضال لأتصل تليفونياً من مركز اتصالات البلد ، ولم نجد ما نركبه من السيارات الخاصة فاستقللنا حافلة وكانت غير مزدحمة في البداية ثم تحولت بعد ذلك إلى علبة سردين . قلت : سامحك الله يا نضال .. الحافلة لا تحمل أرقاماً حكومية يبدو أنها خاصة ، ومع ذلك فهي تمتلئ بالركاب ... وفتت في تكديس مرورى وعبر الزجاج رأيت الموقف الثانى .. امرأتان تعبران الطريق .. أشكاهما صينية .. وفتى ثالث يحاول اللحاق بهما .. يبدو من هيئته أنه سكران .. ويحاول أن يحتضن إحداهما وهى تدفعه عن نفسها وقد عبرت إلى منتصف الشارع وتخشى أن تصدمها سيارة وهو لا يكف عن محاولة احتضانها وتقيلها وهى تدفعه عنها فى كلل ، والناس فى الطريق وفى الحافلة وراكبى السيارات لا يهتمون بأمرهما ! لفت نظر نضال إليه .. فقال : إنه سكران والناس هنا تعذره ، قلت : أليس هناك من يغضب لذلك فيدفعه عنها .. قال : أبداً .. الناس هنا لا يهتمون بذلك ... وتحركت الحافلة وأنا أتميز غيظاً وأتابعهما يبصرى قبل أن يختفيا ، ذهبنا إلى مركز الاتصالات فأعطينا عاملة التليفونات مبلغاً تحت الحساب وأجريت اتصالاً بموسكو لأستفسر عن خطوتنا القادمة هل سنعود بعد (أما آنا) أم ماذا سنفعل ؟ ولكن لم أجد من أسأله ، وأجريت اتصالاً آخر بالأهل لأطمئن عليهم وقد تعودوا على أنى لا أتصل بهم من تلك البلاد إذ ليس يسيراً عليّ أن أجد مركزاً أستطيع الاتصال منه .. وبعد أن أجرينا الاتصال وقد أخذ نضال المال ليدفع الحساب ، انتظرتة بالخارج ، وطال انتظارى ، وبالخارج كانت هناك نافورة متوسطة الحجم عميقة نوعاً ما

وقد استفاد بعض الفتیان منها باستخدامها كحمام سباحة شعبي يقفزون من حوافها لداخلها ، وهم يرتدون ما تيسر من الأردية الداخلية والبنطلونات ويصيحون في مرح .. وبعد قليل خرج نضال غاضباً لقد غالطته عاملة التليفون في الحساب واستطاعت أن تجبره أن يدفع أكثر من التعريفه المقررة ولم ينتبه لذلك إلا بعد انصرافه من الشباك فلما عاد إليها أنكرت أنها فعلت ذلك .

قلت متهكماً : أبدأ إنها تحسن دخلها ! □

مصعد

بالعمارة التي نسكن بها مصعد لا بأس به وإن كان يذكرني بما كان يحكيه لنا الإخوة .. منير والطيب والقحطاني عندما كانوا في (ليننجراد) وكان المصعد تفوح منه رائحة كريهة .. علموا فيما بعد أنها بسبب الأفعال غير اللائقة للكلاب . إذ تعود بعضهم على قضاء حاجته في المصعد فازداد اشمزاز منير من ذلك حتى إنه قد كان يكتم نفسه إذا دخل المصعد ويظل لا يتنفس حتى يصعد به إلى طابقه .. وكنت أمازحه لقد كان اختباراً طويلاً لطول نفسك .. إذ كان يصعد إلى الدور العاشر ولولا ارتفاع الطابق لما قبل أصلاً أن يركب مصعداً كهذا ..

أما مصعدنا فلم يكن يعكر صفوه شيء إلا شعورك بأنه قديم كقدم الشيوعية ، وقريباً من بابه ذات مرة كان يقف فتى وفتاة - في الشارع - ونحن نمر أمامهما وهما لا يهتمان بذلك ويقبلان بعضهما في هيام سخيف. قلت لنضال : هل مثل هذه الصورة منتشرة هنا ؟ قال : إنهم يقلدون الأفلام بعد الانفتاح . في طريقنا ذات صباح استوقفنا رجل في الأربعينيات من عمره - أو هكذا قدرت أنا سنه - وشكله صيني ورحب بنا بلغة عربية سليمة ، وسألته عن اسمه ؟ قال : منصور ، قال : هل تعرف من أين أنا ؟ قلت : لا .. قال : من كردستان الشرقية .. نعم إنها البلد المظلومة ، وأشار عبر الجبال المحيطة بنا .. إنه هناك ، وتذكرت ذلك البلد المسلم الذي وقع بين استعمارين لدودين .. استعمار الصين واستعمار روسيا كل بفكره الرافض للإسلام ولنا أن نتخيل المذابح التي حدثت والاضطهاد الذي لاقاه إخواننا هناك والذي سجله الروائي الأستاذ نجيب الكيلاني في رواية (ليالي

تركستان) هممت أن أدعوه إلى بيتنا ليجلس إلينا بدلاً من الوقوف في الشارع ، وأحسست أن (نضالاً) لا يرحب بذلك من طرف خفى فقلت له باسمي أتمنى أن أقابلك في المسجد .. قال : نعم نعم وانصرف مبتسماً وانصرفت مع نضال محرّجاً .. كيف لم يرحب باستقباله وما المانع من ذلك. وصارحته بما يجول بخاطري فقال : معقباً نحن لا نعرفه ولا نأمن في تلك البلاد أن نتساهل مع الأعراب ولا أن ندخلهم إلى بيوتنا وشعرت بالملل من ذلك الحذر حتى متى نظل في ذلك الشعور .. لا نفتح لأحد لا نتعرف على أحد.. ما أيسر العيش في بلاد المسلمين .. نعمة الأمن نعمة عظيمة هنالك تستطيع أن تمشي في الطريق وأن تدعو الغرباء إلى منزلك وأن تفتح الشباك وألا تخشى أن يقفز إليك منه أحد □

فى مسجد بشكيك

جاء يوم الجمعة .. سنذهب اليوم إلى الصلاة فى المسجد كم هو لطيف أن نذهب إلى المسجد فنحن لم نصل فيه إلا مرة واحدة منذ أن حللنا فى (بشكيك) إذ صلينا فيه صلاة المغرب ذات يوم ونحن نمر على مقر مؤسسة الوقف ، واستمتعنا بالوضوء فى (ميضته الكبيرة) .. إن بناء المسجد قديم وبجواره وعلى مساحة كبيرة يقف مبنى آخر لم يكتمل لتوسعته فيبدو أنه سيكون مركزاً إسلامياً كبيراً .. وبعد الصلاة تعرفنا على بعض الموظفين وحملناهم سلامنا للشيخ (عبد المجيد) إمام المسجد الذى التقيناه فى (اسيكاتا) ولم يكن موجوداً وقتها .

ووقف معنا أحد الموظفين فيه يرحب بنا ويدعونا إلى حجرته ، شكرناه وانصرفنا ، وحدثنا نضال فيما بعد عن المشاكل التى تعرض لها موضوع التوسعة فهو الآن متوقف بسبب قلة الدعم فالمؤسسات الخيرية التى تدعمه تشك فى المفتى الذى يقوم عليه أنه يستولى على الأموال لنفسه وهو أهل لأن يشك فيه . إذ أن هذه التوسعة تكلفت أكثر بكثير من النفقات المعتادة على مثل هذا البناء . فأوقفت الجمعيات الخيرية دعمها له وهو يرفض أن يقوموا هم بإتمام البناء بأنفسهم بل يريد أن يمدوه بالمال ليقوم هو بالإشراف على البناء . كانت تلك هى الخلفية التى أعرفها عن المسجد قبل ذهابي إليه يوم الجمعة بصحبة الأخوة .. وذهبنا وهناك قابلنا الأخ عبد المطلب ورحب بنا ورحبنا به ووعدنا بزيارة لقريته فى الغد .

كان هناك احتفال قبل صلاة الجمعة وسألنا عن السبب فقيل لنا إنه احتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا فى المسجد معهم بانتظار

انتهائهم من الاحتفال ونحن لا نقدر أن نتكلم فى بدعية الاحتفال مراعاة لحال غربتنا ولقوة من يتبنى الأمر ، ووقف الشيخ عبد المجيد على المنبر ، وتلى بعض القصائد بالتركية والعربية وأظنه قرأ كذلك القصيدة المسماة بنهج البردة على ما فيها من المنكرات العقيدية

ثم فوجئنا أن الناس جميعاً بالمسجد يقفون فى لحظة معينة من قراءته وكذلك فعل (عبد المطلب) وسألناه عن ذلك ؟ قال : إنهم يقولون إن روح الرسول ﷺ تنزل فى ذلك المكان لذا فهم يقفون احتراماً لها .

ظللت على جلستى فى محمد صامت لمن حولى من الوقوف وقد رمقوني بأبصارهم ولسان حالهم يقول لم لا تنهض مثلنا سبحان الله كم يضل الشيطان الناس .. كيف يقولون على الله ورسوله وما لهم بذلك من علم . ويزعمون أن روح رسول الله تحضر إليهم وبأى مناسبة فى مناسباتهم البدعية تلك .

استمر الاحتفال قرابة الساعة ثم أذن للجمعة فكانت الخطبة لا تتجاوز العشر دقائق !

ثم جمعنا عبد المطلب بأستاذه الذى علمه ورحب بنا وأكد على دعوتنا لقريتهم ، ووعدنا به ذلك فى الغد .. وبعد ذلك جاء المفتى ورحب بنا فى اقتضاب وظل يحدثنا عن شكواه من الجمعيات العربية وكيف أنهم لا خير فيهم وأنهم يعطلون إكمال المبنى . استمعنا إليه فى حيرة .. الله أعلم بالأمر وإن كنا قد تعلمنا من قبل فى تلك البلاد وبأن ليس كل ما يقال هو كل الحقيقة □

إلى قرية واستثنى

ذهبنا فى الصباح لنوفى بوعدنا ولنذهب إلى قرية واستثنى مسقط رأس عبد المطلب وكنا سنركب حافلة نقلنا إلى هناك . وانتظرنا فى موقف الحافلات . موقف صغير ليس به مكان للجلوس ، وطال بنا الوقوف وهو مزدحم وبين حين وحين آخر تطل سيارة يتدافع الناس إليها ليفلح البعض فى الركوب ويتخلف آخرون ، فالمترض أن الموقف هنا تتجه منه السيارات إلى أماكن مختلفة ومع ذلك ليس هناك أى تنظيم لعملية الوقوف أو تحديد لأماكن انتظار كل قرية ، أو حتى تمييز السيارات بأى إشارة بدلاً من ترك الأمر هكذا بدون أى نظام .

كلنا نتخيل أن هناك مواعيداً معروفة للسيارات التى تتحرك إلى القرى ، ولكن يبدو أن هذا أيضاً ليس بصحيح كما أنه لا يوجد مشول يرجع إليه فى مثل تلك الأمور بعد طول انتظار قررنا أن نتمشى قليلاً فقد كان بالمكان سوق . اقترحنا أن نتمشى بعض الوقت فيه لحين وصول السيارة بدلاً من الوقوف فى مكان الانتظار المزدحم . السوق أشبه بأسواق الخضار الضيقة بكل معنى الكلمة وهو مزدحم أيضاً بالمتجولين لدرجة الاختناق أحياناً ، وفى نفس الوقت فإن البضائع المعروضة لا يوجد فيها ما يمت بصلة للطعام وإنما كلها من المستوردات . ملابس وأحذية وأجهزة وكلها تباع على عربات الخضار (وفرش) شبيه تماماً بتلك الموجودة فى الأسواق الشعبية .

البائعون هنا يعملون بأمان أكثر . بعد أن تجولنا فى هذا السوق العجيب وتوقفنا بسبب الاختناقات المرورية ، اكتشفنا أن أكثر الناس هنا يتفرج فقط بمعنى أن دخول هذا السوق هو أقرب للتسلية منه للشراء وإن كانت

حركة البيع لا بأس بها لاسيما أن التجار هنا محترفون ولديهم إمكانيات مادية تساعدهم على تنوع البضائع قليلاً إذ سبق فأشرت إلى أنه قد يوجد فى كل محل كبير بعض الأجهزة والملابس التى لا توضع فى بضع أرفف عند أحد التجار فى أى بلد آخر وإنما المقارنة هنا بين أولئك التجار فى ذلك السوق وبين تجار الأرصفة الذين يجلس أحدهم بشيء بسيط كبعض علب الكبريت مثلاً لبيعها ثم ينصرف .. الناس هنا مولعون بالملابس الغربية وأكثر ما يباع لهم فى تلك البلاد هى تلك الملابس ، والغريب أن الشباب هنا يهتمون بالملابس ولو على حساب الطعام وقد يكتفون بشريحة خبز أضافوا إليها قليلاً من الزبد والملح صباحاً ومساءً فى حين أنهم يلبسون أفضل الملابس ويشترونها بأعلى الأسعار ، وأتوه هنا بما ذكرته آنفاً من الفرق بين الشباب والعجائز الذين لا يزالوا يحتفظون بملابسهم التقليدية التى ورثوها من الشيوعية .

عدنا بعد ذلك إلى موقف السيارات لتركب .. لم نجد السيارة ولم يخبرنا أحد إن كانت قد جاءت أم لا .. ولكن تردد خبر أنه إذا لم تأت فى غضون نصف ساعة فلن تأتى وانتظرنا أكثر من ذلك فلم تحضر السيارة فانصرفنا آسفين □

غروب وهموم

عند غروب الشمس يبدو الأفق البعيد رائع الجمال وقد لاحت على البعد جبلاً تغرب الشمس من ورائها والصورة تزداد بهاءً وروعة إذ تصبغ الشمس باللون البرتقالي وتضفي ظلالاً غامضة على ما تحتها ، وأنا أتأمل الغروب من أمام الجبل الذي كنا نسير بالسيارة باتجاهه وهو يقف شامخاً بالأفق بلونه الرمادي وغمته البيضاء والتي كنت أظن أن بياضها ناتج من ثلج لا يزال بها لم يذوب ، ولكنها ليست كذلك إنما هذا البياض في قمته لون فيها فما أبدع خلق الله سبحانه وتعالى .

ذهبنا إلى مكتب الوقف كما كنا نفعل كل يوم تقريباً وكنا قد قابلنا هناك أحد الشباب ، استقبلنا وللمح بفتور أصابنا بالإحباط - أنا ومحمود - ولكنه على العموم أخبرنا بموعد وجود المدير الإقليمي ، وهو أخ كويتي فاضل التقينا به وأخبرنا أنه مع الأسف الشديد فإنه بسبب عدم التقائنا قد فاتنا موعد المخيم المقام في (كزاخستان) وتضايقتنا إذ فاتتنا تلك الفرصة لاسيما ونحن قد رأينا في البلاد الأخرى أهمية مثل تلك المخيمات ، ولكن قدر الله وما شاء فعل وانصرفنا بعد ذلك وقد أخذنا قراراً أن نتصل بموسكو لنسأل هل من خطوة جديدة .

وفي الطريق رشحت للأخوة شريطاً به أناشيد كان الأخ عمر الليبي في القرم قد أهدها لى فأدركناه بالسيارة حتى لا يشغل قائدها ما يؤذينا من الأغاني وكان به نشيداً تأملت في معانيه فذكرني بمن سبقنا من الإخوة والأحباب على الدرب فمنهم من قضى نجه إنها قصيدة رائعة تلاها منشدها بصوت مؤثر وحسن أداء وهي تتحدث عن صديق يرثى صديقاً له .

تقول القصيدة :

هل ترانا نلتقى أم أنها
ثم ولت وتلاشى ظلها
هكذا يسأل قلب كلما
فيأذا طيفك يرنو باسمًا
أو لم نمضى على الحق معًا
فمضينا فى طريق شائك
ودفنا الشوق فى أعماقنا
قد تعاهدنا على السير معًا

وكان صاحبه يجيب عليه فى غيبته فيقول :

حين نادانى رب منعّم
ولقاء فى نعيم دائم
قدموا الأرواح والعمر فدى
فليعد قلبك من غفلاته
ويعود الأول فيجيب :

أيها الراحل عذراً فى شكاتى
قد تركت القلب يدمى مثقلأ
وإذا أطوى وحيداً حائراً
وإذ الليل خضم موحش
لم يعد يبسرق فى ليلى سنا
غير أنى سوف أمضى مثلما
سوف يمضى الرأس مرفوعاً فلا
تهدت فى أسى وقد تأثرت بالكلمات الصادقة واغرورقت عيناى
بالدموع وأنا أنذكر صديقاً عزيزاً سبقنى إلى الآخرة □

مركز الاتصال مرة أخرى

أجمل مكان في البلد - حسبما رأيت - هو ذلك المكان الذي فيه مركز الاتصالات ولولا الذكرى المزعجة التي مرت بنا - أنا ونضال - يوم أن غافلته - عاملة الاتصالات - فأخذت أكثر من حقها لكنك أغريته بالذهاب مراراً إلى هناك إذ أنني أحب أن أجرى اتصالاً بأهلى بين حين وآخر ، كلما كان ذلك ممكناً . ففي الأماكن البعيدة يصعب الاتصال رصوحاً للظروف التي تجبرني على ذلك .

وكانت خطوتنا التالية هي الاتصال بموسكو وبعد عدة محاولات فاشلة لعدة أيام كنت خلالها سعيداً بالذهاب للمركز ورؤية الأشجار الباسقة من حول ملتقى الشوارع المظلة عليه فقد تمكنا أخيراً من التحدث إلى الأخ منير الذى وعدنا بسؤال هيئة الإغاثة إن كان لديهم مشروعات دعوية أو مخيمات يمكن أن نشارك فيها .

وأعدنا الاتصال مرة أخرى ، وكانت الإجابة أن هناك مخيماً دعويًا مقامًا فى إحدى القرى القريبة بيد أنكم لن تتمكنوا من اللحاق به فقد قارب على الانتهاء ، أما إذا أردتم العودة والانتظار فالأمر إليكم فى ذلك .

تساورت أنا ومحمد ورأينا أن العودة إلى موسكو والانتظار لن يكون له كثير طائل إذ الشتاء على الأبواب ، وقد يطرقتنا البرد فى خلال أيام وقد بدت بوادره فى موسكو على الأقل وفى الشتاء تتوقف تلك الأعمال الدعوية من إقامة مخيمات أو دورات إذ ينشغل الجميع بالعمل والدراسة وتغرب الشمس فى الثالثة أو حولها ويطول الليل والبرد فيجبر الناس على لزوم البيوت لذا لم نجد بداً من اتخاذ قرار الرجوع إلى الدوحة □

العودة

هكذا قاربت الرحلة على الانتهاء وجاء قرار العودة وظننا فى أول الأمر أن باستطاعتنا فى خلال يوم أو يومين أن نعود إلى الدوحة أو حتى إلى الإمارات ومنها إلى الدوحة .

ولكن أنى لنا على حدود الصين أن يكون الأمر يسيراً هكذا .. تلك البلاد التى دخلت فى الإسلام فى زمن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إذ دخل قتيبة إلى طلاس القريبة من طشقند بأوزبكستان ثم انطلق منها إلى غيرها والتى دخلها قتيبة بن مسلم رحمه الله فاتح تلك البلاد ، ترى كم تعبوا حتى بلغوا ذلك المكان ناشرين لدين الله محتسين جهدهم وتعبهم وقتالهم وغربتهم ، كم جاهدوا وكم نقصر وتلهينا الدنيا بمشاغلها عن القيام بواجب الدعوة ، مجرد دعوة الناس رغم أمن افتقده الصحابة ، ويسر فى الانتقال وغير ذلك من الأمور التى حرمهم الله منها ، كم نبذوا أقزاماً إذا قارنا أنفسنا بهم ...

لم يكن يسيراً أن نجد حجوزنا على رحلات العودة ، أو بمعنى آخر لم تكن هناك رحلات تابعة لشركة طيران يمكن أن ننزل عليها وكان الحل إذن هو أن نبحث عن رحلة سياحية من نوع تلك السياحة التسويقية التى يقوم بها التجار هنا إذ تؤجر إحدى الشركات طائرة لمدة أسبوع تنقل خلالها تجار الشنط الذين سبق وصفهم - إلى أى بلد يتسوقون فيه ثم تعود بهم آخر المطاف مرة أخرى .

وبالفعل وجد (أبو مصعب) إعلاناً عن إحدى تلك الرحلات فاتصل بها وحجز لنا عليها ، وكان السفر بعد يومين وأعدنا عدتنا للسفر وحضرنا

شئنا واستكملنا بعض الهدايا كان منها بعض مشغولات يدوية خشبية
لزينة النساء ؛ اشترت بعضها من بشيك و قبل السفر بيوم اتصلنا بهم
لنتأكد من موعد الإقلاع فقالوا لنا : إن الرحلة تأجلت أسبوعاً كاملاً . يا
إلهي أسبوع آخر من الانتظار ..

كم هو ممل أن تجلس فى مكان ما لا لشيء إلا لأنك لا تجد ما يقلك إلى
بلدك ، ولكن ما باليد حيلة ..

برزت لنا مشكلة جديدة استهلكت بعض من أيام الانتظار وكنت قد
لفت النظر إليها عبر صفحات المذكرات وهو أننا لا نحمل تأشيرة دخول
إلى تلك البلاد ، وعلى ذلك فإقامتنا فى نظر القانون غير شرعية ودخولنا
كذلك ، فيا ترى هل سيؤثر ذلك على عملية خروجنا .

تشاورنا واستقرر رأينا على أن يحاول الشباب إنهاء الموضوع داخل
الجوازات ، وذهب نضال إلى هناك وقابل أحد المسئولين والذي زعم له
بدوره أن الأمر خطير ولا بد من حله . وما الحل إذن ؟ مائة دولار وينتهى
كل شيء .

وهكذا انتهت الأيام السبعة وركبنا سيارة خاصة ودعنا عندها (أبو
مصعب) وتركنا (بشيك) بجبالها الرائعة ومياهها الصافية لنذهب إلى
المطار مع نضال □

نضال أيها الصديق

كم هو لطيف ذلك الشاب (نضال) اسم على مسمى ولكن كان قصير القامة بادي النحافة إلا أن له نفساً عالية وهمة كبيرة .

وهاهو يتجه معنا إلى المطار بعيد صلاة الفجر وقد آل على نفسه ألا يتركنا حتى تتحرك الطائرة ... أنهينا إجراءات الخروج وختم لنا ضابط الجوازات أختام الخروج .. ودخل معنا نضال إلى صالة الإقلاع وقد استأذن في ذلك متعللاً بأننا لا نحسن اللغة ، وحسنًا فعل فقد فوجئنا بعد دخولنا بصالة تفتيش طولبنا فيها بتفتيش أمتعتنا واستغربنا ذلك أولسنا سنخرج من البلد ؟ فقال نضال : إنها في الغالب حجة لدفع بعض الرشاوى .

موظف التفتيش أسر إلى نضال بأن ما نحمله ممنوع ؟! ولم نكن نحمل بالطبع إلا بعض الهدايا التذكارية .. كممثل ما ذكرت .. اشتريناها عبر الرحلة .. بعض أشغال يدوية لبراويز وبعض التحف الخشبية وساعة ! فما الممنوع من ذلك ؟!

فقال الموظف : إن خروج أى من إنتاجات البلد ممنوع وبالطبع لا فائدة من إقناعه إننا تقريباً لم نشتر شيئاً من بلادهم .

قال نضال : ألم أقل لكم عشرة دولارات ونهى كل شيء .. وظللنا نعلق أنا ومحمود ؛ فأين تشجيع السياحة ؟ وأين حسن المعاملة للغرباء لينقلوا صورة طيبة عن بلادهم ؟!

لكم هي بعيدة تلك البلاد عن إدراك كل ذلك .. وهاهى البقايا العرجاء للشيوعية تأبى إلا أن تودعنا فى أخلاق الناس وانتهازيتهم وفى القوانين الحمقاء التى تمنع أن يصطحب الزائر بعض ما يذكره بالبلد .

انتهى كل ذلك ودخلنا إلى صالة صغيرة تطل على أرض المطار وقد قامت الشركة بتسليم أمتعتنا لشحنها إلى الطائرة كالمعتاد .
وودعنا نضال وظل واقفًا لفترة ثم أشرنا له من بعيد أن انصرف فما هي إلا دقائق لنركب الطائرة .. وغاب نضال عن عيوننا . ومرت الدقائق إلى قرب ساعة وفتح باب الخروج إلى أرض المطار . ولكن هل خرجنا منه؟

أبدًا .. لقد اكتشف مسئولو الرحلة في آخر لحظة .. ولعل أشكالنا العربية التي لفتت نظرهم إلينا .. أننا لسنا منضمين إلى تلك الرحلة وأن رحلتنا تأجلت إلى الظهر .. عجبًا كيف تسلموا التذاكر منا إذن؟ وكيف شحنوا أمتعتنا معهم؟ .. خرجنا مرة أخرى إلى صالة التفتيش .. أمامنا ثلاث ساعات تقريبًا .. سنمضيها جالسين انتظارًا لإعادة الكرة مرة أخرى .
والمفاجأة السعيدة أننا وجدنا نضالاً ينتظرنا .. ألم أقل لكم .. لقد أبقى الفتى أن ينصرف قبل أن يطمئن على صعودنا الطائرة فانظر كل هذا الوقت.

كم جميل أن تجد صديقًا يهتم بشأنك . مرت الساعات الثلاث ودخلنا مرة أخرى ، وكما توقع نضال فقد أعادت الموظفة - موظفة التفتيش - الروسية الأصل نفس الادعاء بأن ما نحمله ممنوع وطالبت بكل وقاحة بإعطاءها مائة دولار . وتضايقتنا من إصرارها ، وأصررت بالمقابل الأندفع لها شيئًا .. ورفع نضال صوته معترضًا على أسلوبها وجميع من بالصالة يسمعون وهي تفاصيل معنا فيما يجب أن ندفعه مقابل السماح لنا بالانصراف .. منتهى التسبجج ، وما حلت المشكلة إلا بتدخل رئيسها المباشر إذ سألنا هل دفعتم لزميلها السابق؟ قلنا نعم . فاتصل تليفونيًا به ، وكانت الوردية قد تغيرت - وعاد فقال لها إن زميلها سيعطيها شيئًا

بضيق وحققد نركتنا ننصرف ثم علقت قبل أن يدخل إلى الصلاة
الصغيرة يا ليتكم تأخذوننا معكم ' واستغربنا من طلبها لاسيما بعد
تلك المشاجرة ، ودعنا نضال بحرارة وركبنا الطائرة وصوتها يرن في
أذنى.. ترى هل كانت تعبر عن نفسها فقط بمقولتها تلك ؟ □

طائرة عرجاء

لم تكن الطائرة تختلف كثيراً عن مثلتها التي ركبناها يوم قدومنا .. نفس القدم ، لا يوجد بها أحزمة أمان ، لا توجد كراس لها أرقام .. إنها سيارة قديمة لها جناحان وتطير ، وقد زاد من استغرابنا منها أنه لم يقدم لنا فيها وجبة طعام .

لم يطل تحليقتنا في الهواء حتى تعرضنا لموجة من المطبات الهوائية ، اهتزت الطائرة لها اهتزازاً عنيفاً وأحسنا كأنها تسقط من شاطئ ، وفتح الركاب .. يا لها من نهاية .. وتشهدتُ في سرعة حتى لا أنقل توجسى لمحمود ومع طول وقت الاهتزازات تعودنا عليه ، وقمت أتمشى في السيارة - أفصد الطائرة - أول مرة أشاهد طائرة بابها مفتوح وهي تحلق .. إننا سنهبط وقفت بجوار الباب مع بعض الفضوليين من أمثالي أطلع في حذر عملية الهبوط ، ونزلت الطائرة بالفعل في أقرب مطار .. إن بها عطلاً .. ولله الحمد أنها لم تسقط .. وجلسنا فترة من الوقت نتنظر حتى عدنا إلى الإقلاع مرة أخرى .

نزلنا بعد أربع ساعات من الطيران إلى مدينة العين .. وموعد الطائرة إلى الدوحة بعد يومين كيف ستتصرف .. اكتشفنا أنه يحق لنا دخول البلد لأن الرحلة كلها مسموح لها بالدخول وبالفعل قررنا ذلك ، وجمعوا منا الجوازات ثم تسهلاً علينا في الدخول سمحوا لنا أن ننصرف في سيارة الرحلة وبالفعل ركبنا معهم السيارة ثم انصرفنا لشأننا في دبي ، وعدنا بعد يومين لنسأل على الجوازات وما أن دخلنا إلى الفندق حتى وجدنا جميع من كانوا معنا على الطائرة ينظرون إلينا باستغراب ، وجاءت مستولة لهم

تخاطبنا بلهجة لم تعجبنا .. واتضح فى النهاية أنهم ظنوا أننا تسللنا إلى
البلد .. لماذا ؟ أبداً لأنه مسموح للروس أن يدخلوها بتأشيرة يحصلون
عليها من المطار أما نحن فلا بد لنا أن نحصل على تأشيرة مسبقة ، ولما كنا
قد انصرفنا فقد حملت سلطات المطار - التى اكتشفت جنسياتنا من
الجوازات - مسئولى الرحلة المسئولة عن هروبنا ، واضطرونا أن نذهب إلى
العين لتسوى الموضوع مع الجوازات هناك ، ومنعنا تأشيرة دخول لتسوية
الموضوع بعدما كادوا يعممون على الشرطة بدخولنا . أخيراً عدنا إلى بلد
من بلاد المسلمين وما نحن نصلى الصلوات الخمس فى المساجد ، كم هو
جميل أن تدخل إلى المسجد بعد حرمانك منه ، بل كم هو جميل أن تشاهد
النساء المحجبات بعد طول عهد بالعرى □

إلى الدوحة أخيراً

توجهنا إلى المطار والعجيب أننا لم نجد حجراً على الطائرة المتجهة إلى الدوحة واضطررنا أن نعدل التذكرة إلى درجة رجال الأعمال بعد أن كادت الطائرة تفوتنا .. ولك أن تتخيل الفارق بين تلك الطائرة لاسيما في درجة رجال الأعمال وما ركبناه هناك ، وجاءت المضيئة وهي تحمل صينية عليها فطائر ملفوفة .. قلت هكذا يستقبلوننا بالطعام من البداية وابتسمت في سعادة ، أخيراً سنعامل معاملة مختلفة ، وسألتنى المضيئة : هوت أور كولد ، همست لمحمود : فرق كبير .. وقلت : هوت .. فأمسكت (ماشة) التقطت بها الفطيرة من على الصينية وأعطتنى إياها في يدي .. ما هذا إنها ليست فطيرة .. إنها منشفة ملفوفة لأمسح العرق عن رأسي ؛ ومسحت العرق وكل شيء آخر عني وأنا أتبادل الضحك مع محمود □

وبعد

الاليت شعري ، أترانى تحدثت فى تلك المذكرات بعمل احتسب أجره
على الله فأصبح كالمجاهر بالصدقة أو المرائى بها .. أعوذ بالله من ذلك
وأسال الله أن يتقبل منى وأن يغفر لى .
اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ،
فقد أردت والله أعلم أن أنقل صورة حية صادقة لتلك الرحلة .
تذكرة لنفسى ، وعسى أن يستفيد منها مستفيد ..
فرب سامع أوعى من مبلغ ..
لرب متذبذب فى إيمانه يجد فيها هادياً للإيمان فى مقارنة واقعية بحال
أمة الإسلام وغيرها من الأمم .
مقارنة بين فكر كان لا بد أن ينهار لأنه قام على محادة الله خالق الكون
ومدير أمره ، وقامت على أكتافه دولة تحميه .
امتصت خيرات الشعوب لصالح أفراد أو جماعات محظوظة داخل
الدولة ، إنها الرأسمالية المقنعة التى تلهى الشعوب بشبهات لا تثبت لمسحة
عقل أو تدبر ولكن القوم لا يعقلون .
والسعيد من وعظ بغيره ، ومن يدرى ، فلربما تشهد انهياراً آخر
للرأسمالية الحديثة التى تحمل فى طياتها عوامل انهيارها من ظلم وتفرقة
عنصرية خفية واستئثار بمآثر العلم وفوائده لصالح أهوائها فالدور المقبل
عليها - بلا شك - إن شاء الله ..
ولكن هل سنعيش لنشهد ذلك .. الله أعلم .



من قائمة الإصدارات الأدبية

عزت الحريري	الشاعر والخرامى	إبراهيم عبد المجيد	رواية :. قصة
عصام الزهيرى	فى انتظار ما لا يتوقع	أحمد عمر شاهين	ليلة العشق والدم
د. على فهمى خشيم	إبتدأه	إدوار الخراط	حمدان طلبياً
عفاف السيد	خواتم الجحش الذهبى	إدوار الخراط	تباريح الوقائع والجنون
د. غبريال وهبه	سراهمب	إدوار الخراط	رقرة الأحلام الملحية
فتحي سلامة	الزجاج للكسور	أماني فهمى	مخلوقات الأشواق الطائفة
فيصل سليم التلاوى	ينابيع الحزن واللسرة	جمال الفيطنانى	لا أحد بحبك
قاسم مسعد عليوة	يوميات عابر سبيل	جمال الفيطنانى	دنا فتدلى (من دفاتر التعديون آ)
قاسم مسعد عليوة	وتر مشدود	حسنى لبيب	مطربة الغروب
كوثر عبد الدايم	خبرات أنثوية	خالد غازى	دموع إيزيس
ليلى الشربيني	حب وظلال	خالد عمر بن ثقه	أحزان رجل لا يعرف البكاء
ليلى الشربيني	ترانزيت	خالد عمر بن ثقه	الحب والتعار
ليلى الشربيني	مشوار	خيرى عبد الجواد	أيام الفزع فى الجزائر
ليلى الشربيني	الرجل	خيرى عبد الجواد	يومية هروب
ليلى الشربيني	رجال عرفتهم	خيرى عبد الجواد	مسالك الأحيه
ليلى الشربيني	الحلم	خيرى عبد الجواد	العاشق والمعشوق
محمد الشراوى	النغم	خيرى عبد الجواد	حرب اطالبا
محمد بركة	الخرابة 2000	خيرى عبد الجواد	حرب بلاد نمم
محمد صفوت	كوميديا الإنسجام	خيرى عبد الجواد	حكايات الدب رماح
محمد عبد السلام العمرى	أشياء لا تموت	رأفت سليم	الطريق والعاصفة
محمد عبد السلام العمرى	إخاخ	رأفت سليم	فى لهيب الشمس
محمد قطب	بعد صلاة الجمعة	رجب سعد السيد	اركبوا دراجاتكم
محمد محى الدين	الخروج إلى البيع	سعد الدين حسن	أنا كنده
د. محمود دهموش	رفيفات من قهوتى الساخنة	سعد القرش	سيرة عزبة الجسر
د. محمود دهموش	الخبيب الجنون	سعيد بكر	شجرة الخلد
مملوح القديرى	فندق بدون نجوم	سيد الوكيل	شهقة
منتصر القفاش	التهرب مع الوطن	شوقى عبد الحميد	أيام هند
منى برنس	نسيج الأسماء	د. عبد الرحيم صديق	الممنوع من السفر
نبيل عبد الحميد	ثلاث حفائب للسنفر	عبد النبى فرج	الدميرة
هدى جاد	حافة الفردوس	عبد اللطيف زيدان	جسد فى ظل
وحيد الطويلة	ديسمبر الدافئ	عبد خال	الغوز للزمالك والنصر للأهلى
يوسف فاخورى	خلف النهاية بقليل	عبد خال	ليس هناك ما يبهج
	فرد حمام	عبد خال	لا أحسد
		د. عزة عزت	صعبدى صَح

شعر ..

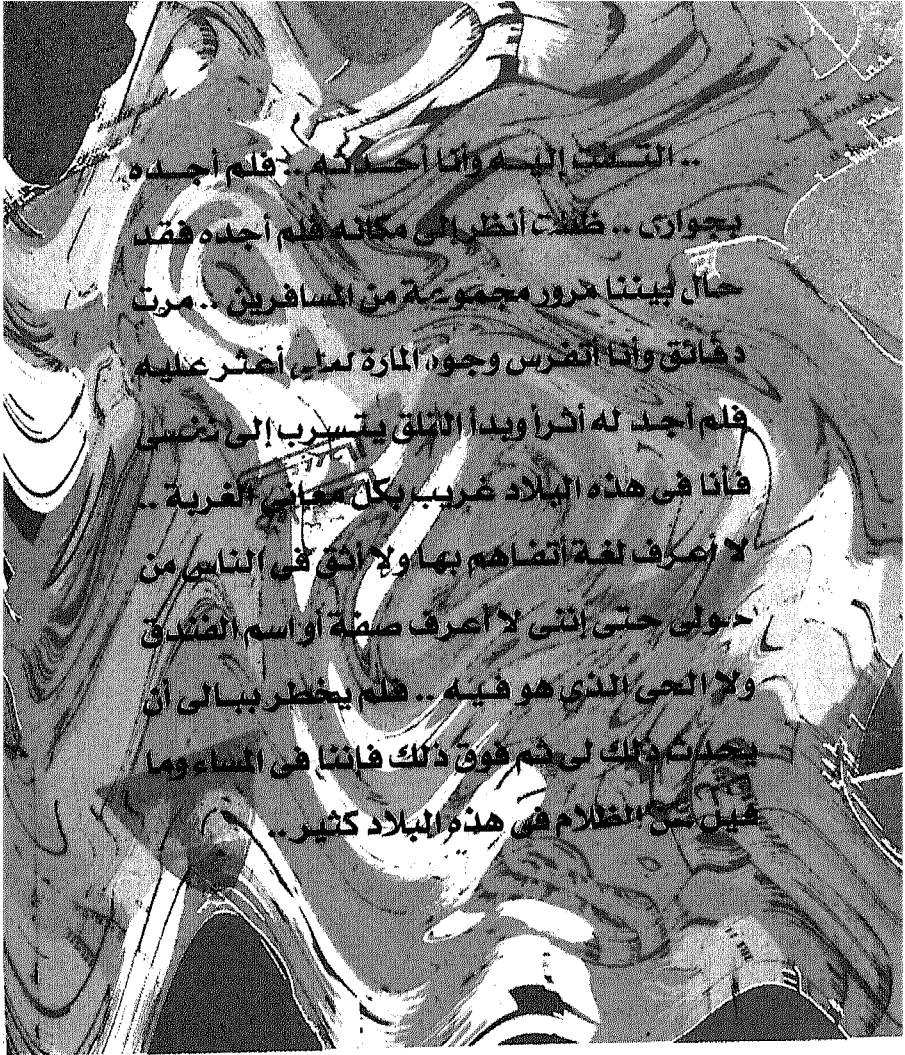
أول الرؤيا
رويذا بأجازه الأرض
قصائد حب من العراق
بدلاً من الصمت
من فصول الزمن الرديء
تماماً إلى جوار جثة يونسكو
كأنها نهاية الأرض
الألوان ترتعد بنسارها
صلاة المودع
دينا تداينا
نلف
البحر . النجوم . العشب في كفٍ واحدة
كتاب الأمكنة والتواريخ
حواديت لفندي
سيرة الماء
رانب الأثمة
إضاءة في خيمة الليل
نصف حلم فقط
عطر النغم الأخصر
سراب القمر
إشارات ضبط المكان
أوراق مسافر
إذهب قبل أن أبكى
الغربة والعنق
مشاعر همجية
غربة الصبح
وتن
ليالي العنقاء
العجوز المداوغ يبيع أطراف النهز
هذه الروح لى

مسح ..

هذه اللبلة الطويلة
اللعبة الأدبية ... (مسرحة شعرية)
ملكه القروذ
د. أحمد صدقي الدجاني
محمد الفارس
محمود عبد الحافظ
دراسات ..
هاجس الكتابة
تحديات عصر جديد
حصان الذاكرة
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية
فراءة المعاني في بحرالحوالات
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة
اللغة والشكل
المتفقون العرب والنزاع
ثقافة البادية
الملل الشعبي بين ليبيا وفلسطين
أدب الشباب في ليبيا
العصرية والإرهاب في الأدب الصهبي
أباطيل الفرعونية
مصر الفرعونية
البعد الغائب ، نظرات في الغصة والرواية
رواد الأدب العربي في السعودية
الكتابة المشروعة
رحلة الكلمات
بحثاً عن فرعون العربي
أعلام من الأدب العالى
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية
زمن الرواية ، صوت اللحظة الصاخبة
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع
لغات والتعبئة الثقافية
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل بملود القديري
الرواية العربية ، رسوم وقراءات
نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة
الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة .

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء بيتناها المركز



.. التفت اليه وأنا أحدهم .. فلم أجده
بجوارى .. ظننت أنظلي في مكانه فلم أجده فقد
حال بيننا مرور مجموعة من المسافرين .. مرت
دقائق وأنا أفكر وجوه المارة لم يأت أحتر عليه
فلم أجده له أشرا وبدأ التلق يتسرب إلى نفسي
فأنا في هذه البلاد غريب بكل معاني القرية ..
لا أعرف لغة أتفاهم بها ولا أتي في الناس من
أحولي حتى أتي لا أعرف صفة أو اسم الضيق
ولا الحي الذي هو فيه .. فلم يخطر ببالي أن
يحدث ذلك لي ثم فوق ذلك فأنا في السماء وما
عين من الظلام في هذه البلاد كثير ..